صفحات من تاريخ

جبل عامل

بسم الله الرحمن الرحيم

العلّامة الشيخ سليمان ظاهر
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

صفحات من تاريخ جبل عامل

الدار الإسلامية
بيروت - لبنان

اسم الكتاب: صفحات من تاريخ جبل عامل

المؤلف: العلامة الشيخ سليمان ظاهر

تحقيق: عبدالله سليمان ظاهر

الناشر: الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

تاريخ الطبع: الطبعة الأولى ٢٠٠٢م/ ١٤٢٣هـ



حارة حريك - شارع دكاش - مقابل مدرسة الليسيه أميكال مودرن

هاتف: ٠١/٥٥٣٨٦٣ - ٠٣/ ٣٨٩١٦٦ - ص.ب: ١٤/٥٦٨٠

WWW-DARALISLAMIA.COM INFO@DARALISLAMIA.COM

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

فمنذ أن غرس الصحابي الجليل، صادق اللهجة، أبو ذر الغفاري رضوان الله عليه، بذرة حب آل محمد في ذلك الغرين الأغر. وحتى يوم الناس هذا، ما زال جبل عامل يسطر في كل يوم في سجل التاريخ، صفحات مشرقة من الإباء والكرامة، وينشر من بين أفنائه إلى أرجاء المعمورة، نوراً من الهداية، والعلم حتى صار لقب العاملي صنواً للعلم يباهي به مفاخر العلماء.

ومن قديم الزمن، كان هذا الجبل العزيز، عصياً على الطامعين، وصخرة تتهشم عندها عصائب الغزاة، فكم شهدت لصيدا وصور وغيرها الأيام... وما زالت حتى اليوم، ترفع بيارق العزة، وتهتف بنداء الحرية، وهل أنصع من صفحة مشرقة سطرتها زنود المقاومين الأشاوس لتضيف إلى مآثرها واحدة، لعلها من أشدها وهجاً وتألقاً...

جبل عامل... هذا العرين الراسخ في جنوب الوطن... هذا الامتداد العزيز لأنفاس التاريخ... وجدير بالقراءة.

والدار الإسلامية التي تعودت أن تتحف قراءها بكل ما هو جديد ونافع ومفيد، تفخر أن تقدم هذه الشهادة التاريخية من خيرة علماء جبل عامل الشيخ سليمان ظاهر(رحمه الله) الذي عودنا على دقته في دراسة التاريخ... وهذا الكتاب أكثر من دراسة، انه معاينة يومية لأحداث فترة مليئة بالمعاناة والصبر، والحمد لله رب العاملين.

٢٠ ذو الحجة / ١٤٢٢

الإهــــداء

إلى أبطال جبل عامل الميامين، لعلهم يجدون فيه من أحداث تاريخ وطنهم وعبره، ما يحفزهم لمواصلة جهادهم المقدس.

إلى أبناء هذا الجبل الأشم الذي لم تنل من شموخه عاديات الزمن ولم تقو على ترويضه وإذلاله أيدي الطغاة.

إلى أبناء جبل عامل الأشاوس الذين فجروا كل بقعة من أرض عامل براكين تشوي بحممها أجساد الصهاينة المعتدين المحصنين بآلاتهم الحربية الضخمة التي لم تحمهم من هجمات أبطالنا المغاوير، حتى من أطفالنا الذين أدهشوا العالم ببطولاتهم النادرة، محطمين أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، والذين أقضوا مضاجع الصهاينة المحتلين الغاشمين وأربكوا قواته المغتصبة بشجاعتهم وإقدامهم.

إلى هؤلاء الأبطال الذين لا ينامون على ضيم ما دام فيهم عرق ينبض، ولا يستكينون لمستعمر ولا يرضخون لمحتل حتى يتحرر وطنهم ويرحل آخر صهيوني مغتصب عن ربوعهم الزاهرة وتراب أرضهم المقدس.

إلى أبناء هذا الجبل العظيم الذي انتهى فيه الاحتلال وبدأ منه التحرير.

أهدي هذا الكتاب

عبدالله سليمان ظاهر

مقدّمة

هذه صفحات من تاريخ جبل عامل المجيد كتبها العلامة الشيخ سليمان ظاهر منذ حوالي نصف قرن. وقد أتى فيها على ذكر أهم الأحداث البارزة التي مرت على البلاد العربية عامة وعلى جبل عامل خاصة، وما نتج عن هذه الأحداث من أمور كان لها أثر عميق في مستقبل ومصير هذا الجبل.

ويتضح لنا في قراءتنا فصول هذا الكتاب ما عانى هذا الجبل الأشم من متاعب وآلام، وما عصف به من شدائد وأهوال، وما لاقى بنوه من جور وعسف[1] واضطهاد، خلال تلك الأيام المظلمة من تاريخه المجيد الحافل بالبطولات.

ولم تكن لتفت في عضد بنيه الملمات والشدائد والتحديات، بل زادت في قوتهم وشحذ هممهم، فانتصبوا عمالقة يتحدون الاستبداد ويقارعون الاستعمار ويناوئون[2] الاحتلال بكل ما أوتوا من قوة وعزم ورباطة جأش.

وكان العلامة الشيخ سليمان ظاهر مؤلف هذا الكتاب وأترابه الكرام، منهم العلاّمتان الشيخ أحمد رضا والشيخ أحمد عارف الزين والأديب محمد جابر وكثيرون غيرهم، في طليعة من تصدوا للمستعمرين الغاشمين والمستبدين الظالمين لا يخافون في الحق لومة لائم غير آبهين بقوة المستعمر وجبروته، وقد اعتقلوا من جملة أربعين مناضلاً من أبناء قومهم منهم رضا بك وولده رياض

(١) عسف: المعاملة بعنف، وعسف فلاناً عامله بعنف.

(٢) يناوئون: يقصدون، بمعنى يواجهون.

بك الصلح وعبد الكريم الخليل وكثيرون غيرهم، وأحيلوا إلى الديوان العرفي في عاليه، وظلوا في السجن مدة ثلاثة وخمسين يوماً ينتظرون مصيرهم الذي كانوا يتوقعونه وهو الحكم عليهم بالإعدام شنقاً كما حصل لكثير من أترابهم الذين كانوا معهم في السجن. ولكن العناية الإلّهية شاءت أن تنجيهم من جور القائد التركي السفاح جمال باشا، فأفرج عنهم لقصور مقاضيهم في الاهتداء إلى الأدلة التي تدينهم (من وجهة نظره).

وسار في ركبهم أبطال ميامين سطّروا بأعمالهم البطولية صفحات من نور في تاريخ هذا الجبل الشامخ الصامد في وجه الظلم والعدوان المتحدي لكل طامع غاشم.

وقد عاصر المؤلّف هذه الأحداث الجسام وعايشها وأرّخها بكل أمانة وتجرّد وإخلاص بعيداً عن النزوات والأهواء.

وقد كافح وناضل وعمل في شتى الميادين واضعاً نصب عينيه إنقاذ وطنه من نير الاستعمار، والارتقاء به إلى مستوى رفيع من التمدن والرقي، وجعله في مصاف أوطان الأمم المتحضرة. وكان له ولصحبه الكرام فضل كبير في المساهمة في إذكاء نهضة جبل عامل خاصة والبلاد العربية عامة.

وهذا المؤلف الذي أضعه بين أيدي القراء الكرام هو قطرة من غيث من مؤلفات العلامة الشيخ سليمان ظاهر العديدة، راجياً من الله عزّ وجلّ أن يوفقني لإخراجها إلى النور.

وقد عقدت العزم على نشرها تباعاً في القريب العاجل ضارعاً إلى الله تعالى أن يسدد خطاي إلى سواء السبيل، وأن يهبني من نعمته القوة والتوفيق لخدمة وطني المفدّى.

نجل المؤلف

عبدالله سليمان ظاهر

نبذة عن حياة المؤلف

نسبه ومولده ونشاته:

هو سليمان بن محمد بن علي بن إبراهيم بن حمود بن ظاهر زين الدين العاملي النبطي[1]، ولد في النبطية من أبوين صالحين في العاشر من المحرم الحرام سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣م، وتوفيت والدته وهو في الثالثة من عمره، فكفلته خالته زوج أبيه، فأحسنت كفالته وتربيته.

ولما بلغ العاشرة قرأ القرآن المجيد وتعلم شيئاً من الخط والإملاء وهو كل ما كان يظفر به بعض أترابه في ذلك العهد في الكتاتيب العاملية التي لم تكن لتخرّج إلا أنصاف الأميين الذين لم تبلغ نسبتهم المئوية من مجموع سكان جبل عامل أكثر من اثنين في المائة عهد ذاك، إذ لم تكن الدولة العثمانية في ذلك الحين لتعنى بنشر العلم ومحاربة الأمية والجهل وخاصة في القرى والرساتيق البعيدة عن المدائن والحواضر، ولولا قيام رهط صالح من العلماء في القطر العاملي بإشادة بعض المدارس الخاصة الدينية وتعليمهم المجاني للناشئين، وإنفاقهم على الفقراء منهم، وجلّهم من الفقراء، لانقطعت سلسلة العلم من البلاد ولطغى عليها الجهل المطبق، على أن كل ما يستهدفه ذلك الرهط من التعليم في مدارسهم ولا سيما في المائة الثالثة عشرة وأوائل المائة الرابعة عشرة

(١) ينتمي إلى الإمام فقيد الإمامية الشيخ زين الدين الشهيد الثاني المتوفى قتيلاً وهو في طريق الاعتقال إلى القسطنطينية في قونية سنة ٩٦٥ هـ.

كاد يتمحض[١] لتعليم علوم الفقه وأصوله والتوحيد والنحو والصرف والبيان والمنطق، وما عدا ذلك من العلوم الأخرى المثقفة والمهذبة للنفوس ولو بأساليبها القديمة فلم تكن موجودة لا في العير ولا في النفير.

خرج المترجم له من كتّابه وهو لم يتزود منه غير بلغة يسيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، وفي نفسه نزوع إلى ارتشاف مناهل العلم غرسه فيها والده الذي كان على جانب من التقى والصلاح ومحبة العلم والعلماء، ولم تمنعه سن الأربعين أن يتلقى القرآن الكريم في صفوف الناشئين في كتّابهم[٢] وأن يسعى لاكتساب ما ينفقه على أسرته.

لاحظ الوالد ميل ولده سليمان للتعليم الذي وجهه إليه وهو يرى وسائله مفقودة في بلده، والرحلة إلى غيره خارجة عن حدود طاقته، والمدارس الدينية الخاصة قد أقفل أكثرها، ولم يبق منها في البلاد سوى مدرستين أو ثلاث، والرحلة إليها شاقة متعذرة على ناشىء في الحادية عشرة من السن، فلم يجد وسيلة لقضاء حاجة ولده الملحة من طلب العلم أقرب من أن يلتمس من صديقه السيد محمد نور الدين الموسوي من العلماء الأجلاء المقيم في قرية النبطية الفوقا على بعد ميل وبعض الميل من بلده منحه جزءاً من وقته يلقنه به مبادىء النحو، فأجابه إلى ما التمسه، فأخذ يتردد عليه صباح كل يوم ويقرأ عليه بعض المتون[٣] في علم النحو، وثابر على ذلك مدة من الزمن إلى أن تهيأت له الرحلة مع رفيق له إلى مدرسة العلامة السيدحسن آل إبراهيم الحسيني الَّتي أنشأها في قرية النميرية من أعمال مقاطعة الشومر على بعد سبعة أميال من النبطية.

---

(١) المحض: كل شيء خلص حتى لا يخالطه شيء، ويتمض بمعنى يخلص، أي ينصرف إلى وجهة محددة.

(٢) كتّاب: المدرسة القديمة.

(٣) المتون: المراجع الأساسية.

مكث سليمان في هذه القرية بضعة أشهر يدرس في مدرستها مبادىء علمي النحو والصرف، ثم أقفلت تلك المدرسة لأسباب لا مجال لذكرها، فعاد إلى بلده وعاود الدرس على أستاذه الأول مع بعض رفاقه حتى سنة ١٣٠٣ هـ. التي قدم فيها النبطية تلبية لدعوة من أهلها السيد محمد آل إبراهيم للتعليم والإرشاد، ، فلازمه وقرأ عليه شطراً من العلوم العربية وآدابها وطرفاً من رسائل ابن سينا وشيئاً من الإلٓهيات وعلوم الكلام وقسماً من آمالي الشريف المرتضى، وكان لهذا الأستاذ الفضل الكبير في إذكاء قريحة سليمان لنظم القريض وممارسة الكتابة وتوجيهه للتجديد وقبول الجديد، وفي تلك الأيام علا شأن مدرسة بنت جبيل في القسم الجنوبي من جبل عامل لمؤسسها المصلح الكبير الشيخ موسى شرارة، فارتحل إليها وأقام بها بضعة أشهر، وعاد في أيام عطلتها، وكان ذلك آخر عهده بها لوفاة مؤسسها.

وفي سنة ١٣٠٦ هـ. جدّد أول أساتذته السيد محمد نور الدين مدرسة آبائه في النبطية الفوقا، فأقبل عليها الطلاب من كل حدب وصوب، وانتقل سليمان إليها ودرس فيها على الأستاذ الفاضل الشيخ جواد آل السبيتي بعض شروح الشمسيات للقطب الرازي في المنطق وشرح التلخيص للسعد التفتزاني في المعاني والبيان إلى سنة ١٣٠٩ هـ. التي قدم فيها النبطية من النجف الأشرف عن دعوة من سكانها العلامة الكبير السيد حسن يوسف مكي، وأنشأ فيها مدرسة حفلت بالطلاب من مختلف الأنحاء العاملية واللبنانية ومن بعض قرى بعلبك، فكانت من خيرة المدارس العاملية، بل كانت فتح عهد جديد بعد التراجع العلمي وبعد الفترة التي كادت تندثر فيها البقية الباقية من المدارس العاملية التي لم تنقطع لها صلة في البلاد منذ المائة الثامنة للهجرة.

وبعد تأسيس هذه المدرسة بثلاث سنوات افتتحت عدة مدارس في شقراء وعيثا وعيناتا وجباع وغيرها. وقد أمّ مدرسة النبطية فريق من الفضلاء

الذين تخرجوا من مدرسة حنويه ومدرسة بنت جبيل، وكان من جملة الوافدين على مدرسة النبطية الأستاذ الشيخ أحمد مروّة المحقق، فدرس سليمان عليه تتمة شرحي الشمسية والتلخيص ومقدمة معالم الدين في أصول الفقه والشرائع في الفقه وبعض كتب الكلام، ودرس كتب العلامة الأصولي المجدّد الشيخ مرتضى الأنصاري في الأصول وكتابيه الطهارة، والمكاسب في الفقه، والقوانين في الأصول للميرزا القمي، وشرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني على رئيس المدرسة، وكان مع تلقيه هذه الدروس يلقي على الطلاب دروس المنطق والمعاني والبيان والأصول والفقه والكلام والتوحيد إلى سنة ١٣٢٤هـ. وهي السنة التي توفي فيها آخر أساتذته، فتفرق شمل الطلاب وكان ذلك آخر عهده بالطلب، ولكنه عكف على المراجعة والمطالعة ودرس على نفسه من مبادىء العلوم التي لم تكن تدرس في مدارس ذلك العهد ما كان له به بعض المشاركة لدارسيها، وأولع بمطالعة الكتب العصرية والمجلات العلمية والأدبية التي كانت تصدر في ذلك الزمن في مصر وبيروت كمجلة المقتطف ومجلة الهلال ومجلة المنار وغيرها، فكانت له في ذلك قدم صالحة وفتحت له آفاقاً جديدة لم يكن للعامليين عهد بها.

نشأته الأدبية:

نما فيه الميل إلى مزاولة الأدب وممارسة الكتابة والتمرن على أساليبها العصرية نابذاً الطريقة القديمة العقيمة التي كانت متبعة في جبل عامل، فلم ينتقص حظه من ثمرة اجتهاده، وتحرى طريقة الكرام الكاتبين من أبناء عصره، وراسل بعض الصحف البيروتية خاصة واللبنانية والدمشقية عامة، وتولى كتابة المقالات الافتتاحية في جريدة المرج التي أصدرها في أوائل الانقلاب العثماني في جديدة مرجعيون صديقه الطبيب أسعد رحال إلى أن حجبتها الحرب العامة.

وكتب في جريدة القبس المحتجبة وفي مجلة العرفان لصديقه الأستاذ الشيخ أحمد عارف الزين، وفي جريدته جبل عامل المحتجبة، أبحاثاً في السياسة والاجتماع والأخلاق والتاريخ، وكتب في غيرها من الصحف والمجلات.

أولع بنظم الشعر وهو ابن خمس عشرة سنة، لكنه نهج فيه منهجاً وسطاً بين القديم والجديد، وجل منظوماته في الأخلاق والاجتماع والوصف وذم مساوىء المدنية الحاضرة.

مؤلفاتـه:

أحب التأليف وهو في عهد الطلب والتحصيل، وكلما خطا في مراحل التعليم خطوة نما فيه ذلك الحب، ولكن كان يعترض طريقه حب التجدّد والتزّيد في الموضوع الذي يحاول التأليف فيه، وهو يتطلب المصادر الكثيرة وهي غير موفورة لديه، فكان هذا السبب الذي صرفه عن عزمه على التأليف مقتنعاً بما كان يكتبه من المقالات في مختلف الموضوعات في الصحف إلى أن تستكمل له مواد التأليف، حتى إذا جمع مكتبة تحوي زهاء ألف كتاب بعد أن أدرك سن الكهولة انصرف إلى التأليف، فكان مما ألفه من المطبوع:

١ ـ تاريخ قلعة الشقيف، وقد استأذنه بعض الأدباء في نقله إلى اللغة الإنكليزية.

٢ ـ بنو زهرة الحلبيون.

٣ ـ معجم قرى جبل عامل نشر في مقالات.

٤ ـ الذخيرة وقد طبع على حدة.

٥ ـ الآلهيات: أحد أجزاء ديوان شعره.

٦ ـ الفلسطينيات: أحد أجزاء ديوان شعره.

ومما ألّفه من غير المطبوع:

٧ ـ تاريخ الشيعة السياسي.

٨ ـ الرحلة العراقية: وهي قصيدة تبلغ زهاء ٥٠٠ بيت وصف فيها مشاهداته في العراق يوم سافر إليه مع الوفد العاملي لحضور حفلة أربعين المرحوم الملك فيصل بن الحسين سنة ١٣٥٢ هـ.

٩ ـ الحسين بن علي: يبحث فيه عن أسباب شهادته.

١٠ ـ الرحلة الإيرانية.

١١ ـ الملحة الإسلامية الكبرى. (شعر).

١٢ ـ الشعر والنثر العامليان المنسيان.

١٣ ـ مجموع ما دار بينه وبين رهط من أعاظم العلماء وأكابر الأدباء من المراجعات الشعرية.

١٤ ـ عدة مجامع أدبية.

١٥ ـ ديوان شعره وهو ينيف على عشرين ألف بيت.

١٦ ـ القصائد النبوية.

١٧ ـ نقض مذهب داروين.

١٨ ـ رسالة في أحوال أبي الأسود الدؤلي وهو أحد جامعي العراقيات.

١٩ ـ تاريخ جبل عامل القديم والحديث.

حياته السياسية:

عني بالسياسة منذ الصغر ولا سيما ما يتعلق منها بوطنه، ونكب في سبيلها نكبات في الحرب العالمية الأولى، وكان في القافلة الأولى بين

مسجوني عاليه سنة ١٣٣٣ هـ. وبعد سجنه ثلاثة وخمسين يوماً خرج مع رهط من إخوانه مبّرءاً من التهم السياسية، ولم يسلم بعد تلك الحرب من أذاها.

في الجمعيات والمؤتمرات:

دخل عضواً في جمعية التعاون الخيري العام سنة ١٣٢٦ هـ. وهو أحد مؤسسي المحفل العلمي العاملي في العهد الحميدي، ولكنه لم يُكتب له البقاء، وكان عضواً في الهيئة المركزية بفرع جمعية الاتحاد والترقي الذي أسّس في بلدة النبطية في أوائل الانقلاب العثماني، وكان عضواً في الجمعية الخيرية العاملية التي أسست في النبطية سنة ١٣٣١ هـ. وعضواً في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي أسسها هو ورهط من فضلاء بلده لنشر العلم وإنشاء وقوف ثابتة لها من التبرعات ومن شتى الوجوه، وكان للمرحوم توفيق بك الميداني من وجهاء دمشق أيام كان مديراً في ناحية الشقيف يد بيضاء في مساعدتها وتنمية وارداتها، ثم انتخب سليمان رئيساً للجمعية المذكورة التي أصبح لها من الأملاك المبنية ما يقوم ريعها في الإنفاق على مدرستها التي أقامتها على أنقاض المدرسة الحميدية التي أسسها العلامة الكبير المرحوم السيد حسن يوسف مكي، وجدّد داثرها الأخوان المحسنان الحاج حسين الزين ويوسف بك الزين، وكان عدد تلامذتها في ذلك الحين زهاء المائتين، وتولى المترجم له رئاسة جمعية نشر العلم في صيداء بعد الحرب العالمية الأولى، وكان أحد أعضاء المؤتمر الإسلامي العام الذي عُقد في القدس الشريف سنة ١٣٥١ هـ. وكان عضواً في مؤتمر بلودان، وعضواً في أكثر المؤتمرات الوطنية التي عُقدت في بيروت وغيرها، وكان أحد أعضاء جمعية العلماء العاملية، وعضو شرف في جمعية الرابطة الأدبية النجفية، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

رحلاتــه:

كان في سنة ١٣٥٢ هـ. في الوفد العاملي الذي سافر إلى بغداد مع وفود الأقطار السورية واللبنانية والفلسطينية لحضور حفلة التأبين الكبرى بعد مرور أربعين يوماً على وفاة الملك فيصل الأول، وقد أحاط نجله الملك غازي الأول هذا الوفد برعايته الخاصة، كما لقي كثيراً من الاحتفاء والتكريم في مدن الفرات الأوسط كربلاء والنجف والكوفة والحلة.

وفي سنة ١٣٥٣ هـ. قام برحلة إلى العراق وإيران واستغرقت ستة أشهر. وكان محاطاً بعطف العراقيين والإيرانيين، ووضع مذكرات في هذه الرحلة، ووصف البلاد التي طوّف فيها وصفاً جامعاً. ودعي لحفلة تأبين ياسين باشا الهاشمي في بغداد، وكان من المتكلمين فيها، ودُعي لحفلة تأبين الملك غازي الأول، وإلى عدة مؤتمرات وحفلات لا مجال لذكرها.

في التجارة والوظائف:

مارس التجارة مع اشتغاله بالعلم والكتابة فلم يفلح، ونُدب إلى الوظائف العدلية، فكان قاضي تحقيق في صيدا في بدء الاحتلال الفرنسي، ثم اضطر إلى التخلي عن الوظيفة بسبب نزعته الاستقلالية ونصرته القضية العربية، ثم اعتقل عام ١٩٢٢ م، وعين بعدها مستشاراً في محكمة بداية كسروان، ثم حاكم صلح في الهرمل والنبطية، ولكنه ما عتم أن فصل من الوظيفة لأسباب سياسية، ولكنه لم يكن راغباً في الوظيفة التي حمل عليها مكرهاً، فحمد ذلك الإخراج منها لأنه كان سبباً لانصرافه إلى ما هو أهم منها، وإلى ما هو ميسّر له من المطالعة والتأليف.

أعمالــه:

عمل كثيراً مع رهط صالح من بلاده وخاصة بلدته النبطية، فكانوا هم أساس النهضة العلمية العاملية الجديدة التي آتت أكلها، وباعثين روح

التجديد فيها. وقد أنفق معظم أوقاته في هذه الناحية، وفي ناحية الكتابة وفي تأليف كتابه تاريخ الشيعة، والملحمة الإسلامية الكبرى وغيرها، وفيما يفيد وطنه مما يبلغه وسعه.

وفاتـه:

وقضى باقي سني حياته منكباً على المطالعة والكتابة ونظم الشعر، مهتماً بتثقيف أبناء منطقته وخدمتهم، وإذكاء الروح الوطنية في النشء، متعاوناً في ذلك مع رهط من العامليين المجاهدين، ومضى في ذلك قدماً إلى أن أقعده المرض وقد بلغ السابعة والثمانين، وتوفاه الله نهار الاثنين الواقع في السادس عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ الموافق للخامس من شهر كانون الأول سنة ١٩٦٠ م.

لمحة عن
جبل عامل

جبل عامل

موقع جبل عامل الجغرافي:

يحدّ جبل عامل من الجنوب نهر القرن الجاري شمالي طرشيحا إلى البحر جنوبي قرية الزيب بالقرب من عكا، ومن الشمال نهر الأولي الذي يصبّ في البحر المتوسط شمالي مدينة صيدا، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق طرف الأردن والنميط والحولة إلى نهر الغجر ووادي عوبا[١].

ويقرب من هذا التحديد ما جاء في تاريخ الأمير حيدر الشهابي:

«وكان البطريق الذي في قلعة الشقيف يحكم على جميع بلاد جبل عامل سهلها والجبل من ساحل صيداء إلى عكا».

ولقد كانت قصبة[٢] جزين وملحقاتها وجبل الريحان حتى مشغرة من أعمال البقاع تابعة لجبل عامل.

وتسامح بعض الكتاب حتى جعل لبنان منه وصفد، وآخر ضيّقه حتى جعله قسماً من بلاد بشارة القبلية، وآخر قسماً من الشقيف وكانت حدوده تضيق وتتسع تبعاً للسلطات التي كانت تتعاقب عليه.

---

(١) العقد المنضد لشبيب باشا الأسعد.

(٢) القصبة من البلاد مدينتها، وهنا بمعنى (قضاء).

مساحتــه:

يبلغ متوسط طول جبل عامل من الشمال إلى الجنوب نحواً من ثمانين كيلومتراً، ومتوسط عرضه نحواً من أربعين كيلومتراً، فتكون مساحته ثلاثة آلاف ومائتي كيلومتر مربع.

عدد سكانه:

يبلغ عدد سكان جبل عامل مائة وخمسة وعشرين ألف نسمة ونيفاً (سنة ١٩٣٢م)، فالشيعة المسلمون منهم مائة ألف، والباقون من الإسلام السنة والمسيحيين من مختلف الطوائف، فالطائفة الشيعية هي الأكثرية المطلقة في البلاد.

تاريخ وجود الشيعة فيه:

إن وجود الشيعة في هذا القطر قديم جداً، وهو أقدم بلاد عرفت بالتشيّع، ويمتد زمن ظهور الشيعة فيه إلى عهد سيدنا عثمان بن عفان (رض).

تاريخ وجود المسيحيين فيه:

يرجع بدء تاريخ وجود المسيحيين فيه إلى ما يناهز القرنين. وقد انتقل بعض مشايخ بني الشدياق اللبنانيين المارونيين إلى عين إبل في بلاد بشارة سنة ١٧٥٩م. وكثر النازحون إليه من لبنان وحاصبيا وراشيا عام ١٨٤٥ م وعام ١٨٦٠م، وذلك على أثر الخلاف الذي استحكمت حلقاته بين الدروز والمسيحيين. فمنهم من ساكن[١] الشيعيين في قراهم، ومنهم من استوطن قرى خاصة، وجمهرتهم[٢] في مرجعيون وقضاء صيدا في إقليم

(١) سَاكَنَ: بمعنى جاور.

(٢) الجمهرة: الكثرة، وجمهرتهم غالبيتهم.

التفاح منه، ومنهم من استعمر قرى خاصة في قلب بلاد بشارة كعين إبل ومريش ودبل وأقرط ودردغية والنفاخية في قضاء صور.

وأما مساكنو الشيعة من المسيحيين فمنهم قسم في النبطية، سكنوها عام ١٨٦٠م ومنهم قسم في الكفور، وفي قرية النبطية الفوقا التي أسس فيها دير للمارونيين بمساعدة أمراء البلاد، وأنشىء له فيها أملاك تبلغ زهاء النصف من أملاك القرية الواسعة، ومنهم قسم في دير الزهراني، وفي قرية أنصار، وفي مزرعة الحمرا، وفي القصيبة وزوطر وقلعة ميس في ناحية الشقيف. وفي قرى كثيرة من ناحية إقليم التفاح بقضاء صيدا عائلات كثيرة وقرى مختصة فيهم.

وبالجملة فإنهم منتشرون في كثير من أنحاء جبل عامل.

أما في مرجعيون فمساكنهم الجُدَيْدَة (وفيها القليل من المسلمين)، والقليعة والخربة ودير ميماس ومزرعة البويضة، وكل سكان هذه القرى منهم. وفي بلدة الخيام نحو الثلث من السكان من المسيحيين، وفي بلاط كذلك، وفي إبل القمح نحو النصف، وفي إبل السقي الأكثرية من المسيحيين والأقلية من الدروز.

ويبلغ عدد السكان المسيحيين في جبل عامل زهاء خمسة عشر ألف نسمة، ومثل هذا العدد تقريباً يبلغ السكان المسلمون السنيون فيه.

موقف الشيعيين والمسيحيين قبل الاحتلال:

كان الشيعيون والمسيحيون قبل الاحتلال على تمام الوئام، ولا أدلّ على حسن معاملة الشيعيين لهم من تهافتهم على سكنى بلادهم، وذلك ناتج عن إيوائهم لهم في حوادث سنة ١٨٦٠م وقيامهم بالدفاع عنهم ومواساتهم لهم في أنفسهم في تلك الأيام العصيبة. وهم يعرفون للشيعة ذلك الجميل، وإن حاول غمطه لهم بعض المغرضين المتهوسين.

جمعت بينهم جامعات[1] الوطن واللغة والمشاركة في المعاناة من مظالم العهد التركي ونكبات الحرب العامة (العالمية الأولى).

وقد لقي المسيحيون اللاجئون إلى قرى الشيعيين في جبل عامل زمن المجاعة المواساة الجميلة، فآوى الشيعيون قسماً عظيماً منهم، وعاملوا الفارين من التجنيد أحسن معاملة، إلى غير ذلك مما لم يُنسَ أثره بعد.

موقفهم بعد الاحتلال:

وظل الشيعيون والمسيحيون معتصمين بعرى الألفة والإخاء حتى أوائل الاحتلال، وكانوا سواء في الشكوى المرّة من الحكم التركي الذي لم يفرق في الجور بين مسلم ومسيحي.

ولم يطل العهد حتى ظهرت بوادر التنكر من بعض المسيحيين لإخوانهم الشيعيين، كما ظهر مثل ذلك مع المسلمين والمسيحيين في أكثر أنحاء البلاد العربية يوم بدت طلائع رسوخ[2] قدم الاحتلال الفرنسي، وأخذت السياسة الأجنبية تلعب دورها في توسيع شقة الخلاف بين الوطنيين، فحلّ التناكر محل التعارف في كثير من البلاد، ولكنه بادىء بدء لم يظهر إلا في مظهر التنازع السياسي، ثم أخذ في التطورات الغريبة، فظهر بين جهلاء المسيحيين من يجاهر بعداوة المسلمين، وتطوع بعضهم إلى القذف والسباب في دينهم وقوميتهم العربية.

وهكذا أخذت بوادر النفور تزداد بين جهلاء الفريقين، مما أوجس منه العقلاء خيفة. فأنشأ بعض المسيحيين الأناشيد الجارحة لعواطف المسلمين، وجلّها طعن في الإسلام والعرب وملك العرب والأمير فيصل.

---

(١) جامعات: بمعنى روابط.

(٢) رسوخ: استقرار.

فلم يكن المسلمون يقابلون تلك الأناشيد بمثلها، بل بما لا يخرج عن مدح فيصل وبيته والتغني بالاستقلال العربي وأمجاد العرب.

سياسة التفرقة:

اتبعت السلطات الاحتلالية سياسة التفرقة بين المواطنين المسلمين والمسيحيين، ولم تراع عواطف المسلمين. وقربت إليها فريقاً من المتزلفين الذين كانوا يسعون دوماً إلى الوشاية وبذر بذور الشقاق والتفرقة وإذكاء[1] نار الفتنة بين أبناء الوطن الواحد. وما المقربون منها إلا المقربون أنفسهم في العهد التركي سواء في ذلك المسيحيون والمسلمون.

مثال ذلك ما حدث في صيدا يوم مرّ فيها (ريكوراه) بفرقته السورية من المتطوعين، الذي ساح سياحة عسكرية أو سياسية في القسم الجنوبي من لبنان، وجاء صيدا فجديدة مرجعيون فصور فصيدا خاتمة المطاف في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٩م. فرأى بعض المقربين من وجوه المسيحيين، وتبعهم بعض المسلمين من الذين مثلوا (رواية عالية) وأذنابهم من القومندان (شاربنتيه) ضرورة دعوة القرى المسيحية للاحتفال بقدوم (ركوراه) وفرقته. وقد رأوا تبرّم المسلمين من الاستقبال، وأسباب التبرّم كثيرة، فاستحسن (شاربنتيه) الرأي، وكتب إلى وجهاء القرى المسيحية يدعوهم للحضور. وفي اليوم نفسه، قدم أهالي القرى بقضّهم وقضيضهم، فكانت مظاهرتهم مظاهرة عدائية للمسلمين لا مظاهرة استقبالية. ورأى الصيداويون من آثار تعصب وجهاء المسيحيين ما حدا بعقلائهم أن يضبطوا بالحكمة نزق شبانهم. ولكن سياسة الخفاء لم تشأ أن يذهب هذا الاجتماع الحافل بلا أثر يذكر، فكان ما كان من هجوم ثلة من العسكر المرابط بصيدا حينذاك،

(١) إذكاء الشيء: زيادته، وهنا بمعنى إيقاد نار الفتنة.

متذرعين بأسباب مختلفة واهية، على بعض المجتمعين من المسلمين بالبنادق وفي رؤوسها الحراب، وانتهوا إلى نسيب شهاب المعروف بميوله العربية، فهشموا وجهه وقطعوا أنفه بحرابهم، وكادوا يقضون عليه لولا دفاع البعض عنه، فانتهت المظاهرة بهذه الحادثة المؤلمة.

ومثل ما حدث قبل ذلك في صور من الاعتداء على عالم جبل عامل الأكبر السيد عبد الحسين شرف الدين في ١٣ كانون الثاني سنة ١٩١٨م، حيث هجم عليه في داره مدير أمن صور آنذاك (الحلاج) وعسكري فرنسي، وولجا داخل حرمه بحجة أن في بيته جمعية سرية، ولما أراد إخراجهم بالحسنى، شهر عليه (الحلاج) مسدسه، ولولا صراخ نسائه لقتله...

ماذا صنعت الحكومة حيال هاتين الحادثتين؟؟؟...

لم تصنع شيئاً قط يبرهن عن حسن نيتها ورغبتها في نشر المساواة بين المواطنين...

جمعت الحكومة أسلحة العامليين الشيعيين، وبعثت بقوة عسكرية تجولت في جبل عامل لأجل هذه الغاية، ولكنها لم تصنع شيئاً من ذلك مع المسيحيين، بل سلحت البعض منهم، وجعلت قراهم كعين إبل ودبل ورميش وأقرط مستودعات أسلحة.

وقد اخترق العسكر حرمة بيت من أشرف بيوتات جبل عامل وهو بيت السيد عبد الحسين محمود ابن أجل علماء الجبل وأنبل نبلائه، فدخل العسكر داره باسم التفتيش على الأسلحة حيث تلقوا أخباراً من بعض مسيحيي جديدة مرجعيون كذلك الحاج محمد حسن عبدالله، فإنهم لم يحترموا هذا الرجل الجليل الذي هو كبير أسرة عبدالله، فوشى به أحد أهالي جديدة مرجعيون، ولما طلبوا منه سلاح قرية الخيام وأجابهم بأنه لا يعلم مكان وجود الأسلحة، ولا يعلم أن في القرية سلاحاً، أحالوه على

التفتيش، فأوثقوه وأوسعوه ضرباً وشتماً، وهو مع رفعة شأنه يبلغ من العمر ٧٥ عاماً. إلى كثير من أمثال هذا الحادث.

ومن طرق إحداث النفرة بين المسيحيين والمسلمين أن الحكومة المحتلة لم تراع في إسناد الوظائف النسبة الطائفية كما أنها لم تراع الكفاءة، كما فعلت في صور، فإن أربعة عشر موظفاً مسيحياً عينتهم في وظائف شتى من عائلة واحدة، ومن عائلات أخرى مسيحية وظفت أشخاصاً آخرين في وظائف مختلفة. وأما الشيعيون الذين تتشكل منهم الأكثرية في القضاء فلم توظف منهم غير بضعة أشخاص في وظائف تافهة. فهي بهذا العمل غير المنطبق على المساواة ولا مراعاة الكفاءة ـ فإن جلّ من وظفتهم لم يمارسوا الوظائف قط ـ أوجدت روح النفرة بين المسلمين والمسيحيين، مما أظهر لها أسوأ الآثار في قضاء صور، وبعث في نفوس الفريقين الشحناء والبغضاء.

ولما رأت أن البعض ممن لا خلاق[1] لهم من المسلمين أخذ يتقرب منها لغاية المنفعة والنفوذ، اغتنمت هذه الفرصة وأنعمت عليهم من الوظائف ما يتضاءلون دونها، ولئن أرضتهم ـ وهم لا في العير ولا في النفير في البلاد ـ فقد أسخطت بتقريبهم الرأي العام العاملي، مثال ذلك ما فعلته في صور وجديدة مرجعيون وصيدا، فقد عينت في الأولى قاضياً ومفتياً، وهما منصبان دينيان، فلم تراع فيهما آمال مسلمي القضاء، هذا بالإضافة إلى جهلهما المطبق.

وعينت رئسياً للبلدية رجلاً غريباً عن البلد، وللمحكمة أعضاء جهلاء. وهكذا في أكثر الوظائف، فإنها لم تراع كفاءة الموظفين، بل راعت ميولهم السياسية.

وعينت في المدينة الثانية أي جديدة مرجعيون قاضياً مشهوراً بفساد

(١) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير، ويقال فلان لا خلاق له: أي لا رغبة له في الخير.

أخلاقه ومفتياً كذلك. وفي الثالثة أي في صيدا عزلت أربعة من كبار مأموري المالية والعدلية واستبدلت بهم بعد أربعة أشهر من لا يوازونهم في مزية من مزاياهم، وما ذاك إلا لأنهم لم يؤثروها على قوميتهم ووطنهم. وعزلت مفتيها بعد مجيء اللجنة الأميركية الاستفتائية، وعينت مكانه حسين الدادا ابن أخي الحاج داود الدادا الصوريين، ولم تراع في تعيينه الأصول المتبعة، فإن هذا المنصب انتخابي، نعم راعت مصلحتها لأن الرجلين مَثَّلا دوراً مهماً في الوشاية والإضرار بالوطنيين الصادقين.

تقرّب من كل من حكام صور وصيدا وجديدة مرجعيون جماعة من المسيحيين النفعيين، وبينهم ثلّة من المسلمين، وكلهم يعملون على التفريق والنفور بين الحكومة والوطنيين. ولكن الكلمة النافذة والمسموعة في الدرجة الأولى هي للمسيحيين، منهم الذين كانوا يصوّرون الشيعيين في أقبح صور التعصب والهمجية. ولعب آل فرنسيس، خليل وإبراهيم، من القليعة، ومطران الروم الكاثوليك الذي كان في نزاع مستمر مع آل عبدالله من الخيام، وآل بركات وفرحة من جديدة مرجعيون أدواراً مهمة في توسيع شقة الخلاف بين الحكومة والوطنيين المسلمين السنيين والشيعيين. ولما كان لهؤلاء مصالح في القضاء فقد اغتنموا هذه الفرصة السانحة لتحقيقها.

لآل فرنسيس وآل بركات وآل فرحة أملاك في الحولة، كثر النزاع عليها بينهم وبين حسين اليوسف شيخ مشايخ عرب الحولة، وكذلك بين المطران وآل عبدالله خلاف على أراض كانت تحت تصرف آل عبدالله وبيدهم فيها وثائق، وبالنظر إلى مجاورة بعض أملاك الأمير محمود الفاعور الذي يملك أكثر أراضي الحولة لأملاكهم، فكان يقع بينهم وبينه نزاع أحياناً.

ولكن نفوذه الواسع في العهد التركي ومكانته بين عربه وعرب الحولة لم ينلهم منه نيلاً، فوجدوا وقد تقربوا من الحكومة الاحتلالية، ما يبلغون به أمانيهم، فتمكن آل فرحة من حسين اليوسف بأن حملوا الحاكم الفرنسي

على إرسال قوة تسلمهم حاصلات الأرض المختلف عليها بينهم وبينه من عهد قديم، فكان ما كان من ضبط الحاصلات، إذ لم يسلم بها باختياره، وسوقه إلى جديدة مرجعيون ومنها إلى بيروت، وبقائه فيها زهاء ثلاثة أشهر، فكان له من ذلك أعظم الأضرار.

أما آل فرنسيس وبركات فقد اغتنموا فرصة الإيقاع بالأمير محمود، وقد هبط قسم من عربه الجولانيين الفقراء بموسم قطاف الذرة إلى الحولة حسب المعتاد. فصوروا لحاكم جديدة مرجعيون الأمر بغير حقيقته، بأن الهابطين إلى الحولة للمعيشة من فضلات ما يبقيه قاطفو الذرة، مهاجمين لقراهم، وجسّموا ذلك في نفس الحاكم الذي والى برقياته ـ عملاً بإشارة المغرضين ـ إلى مراجعه يطلب القوات لمكافحة العرب المهاجمين. وحدث أثناء ذلك، بعد أن أرسل ثلة من الجندرمة إلى حراسة تلك الأملاك، اعتداء منهم على العرب قوبل بالمثل، فانجلى عن قتل جندي وجرح آخر، فازداد الساعون غيّاً في تجسيم الحادث، فكانت عاقبة ذلك أن جاءت قوة عسكرية مجهّزة بالذخائر والمؤن والمدافع والسيارت المصفحة والمسلحة بالرشاشات. وأول عمل لها هو ضربها لدار الأمير محمود وإباحة موجوداتِها من أثاث ورياش وأمتعة وغلال إلى العسكر وإلى أهالي بعض القرى المرجعيونية كالقليعة والخربة ودير ميماس، فنهبوا كل ما فيها وتركوها خاوية خالية.

بدء ظهور الثورات:

لا مشاحة[١] أن للسياسة الحكومية التي كانت ترمي إلى التفرقة بين الوطنيين، وحادثة الاعتداء على دار الأمير محمود، يداً في إذكاء نار الثورة، فنشأت المقاومة الوطنية، وكان معظم أفرادها من شبعا وجباثا وعرب الحولة والفضل، ومن الشيعيين المعروفين.

---

(١) شاحّ فلاناً، خاصمة وماحكة، ولا مشاحّه في الإصطلاح لا خلاف، ولا مجادلة.

وأصبح غرض المقاومة الذي ترمي إليه الانتقام من مسببي نهب دار الأمير محمود. وتوالت هجمات أفرادها المرة بعد المرة على تلك القرى. وزاد الخطب استفحالاً لما انتهى أمر اجتماع اللجنة المختلطة من العرب والإنكليز والفرنسيين للتحقيق عن الأمر وتقدير منهوبات دار الأمير.

وسرعان ما تفاقم الشر، وامتدت أيدي الأشرار من كل جهة ومكان إلى المسيحيين وغير المسيحيين، وانتشرت الفوضى في البلاد، والحكومة المحتلة لم تتخذ من التدابير العسكرية ما يقف بالمشاغبين والمقلقين عند حد، وكانت تلك الجنايات تقع على الدوام في البلاد العاملية، واستحكم النفور في نفوس المسلمين والمسيحيين بسبب سياسة الحكومة التي كانت تفضل فريقاً على فريق، وبدافع الاختلافات السياسية، وبنتيجة ترك الحكومة الحبل على الغارب لقطّاع الطرق، ونزعها السلاح من الأهالي الذين لم يبق في أيديهم من قوة يذودون بها عن أنفسهم وعن جيرانهم.

ومكّنت هذه الفوضى بعض رؤساء العصابات من الانتقام لأنفسهم من بعض المواطنين الذين أساؤوا معاملتهم كما صنع خليل إبراهيم شيخ قرية دردغية مع محمد مطر، الوجيه في قريته واتهمه بتأثير الوشايات بأنه يأوي إليه صادق حمزة الشهير، فلاقى محمد مطر هذا من هذه الوشايات أعظم البلاء. وللاقتصاص من خصمه خليل إبراهيم، هاجم صادق حمزة قريته عدة مرات بقواته المختلطة من عرب الفضل وعرب الحولة من شبعا وجباثا، وامتدت يده وأيدي جماعته إلى القرى الأخرى كالنفاخية.

وحدث مثل ذلك من قبل الثوار الذين أخذوا على أنفسهم الاقتصاص للأمير محمود في القرى المرجعيونية، مما اضطر آخر الأمر الحكومة المحتلة إلى تجهيز حملة، فكان من عملها أن ضربت قرية الغجر من أعمال سوريا حينذاك، فهدمت قسماً من بيوتها، وقتلت بعض رجالها، ونهبت من

حيواناتها ما بين بقر وجاموس ما يبلغ ٣٠٠ رأس، فزاد ذلك من هياج الثائرين، واتجهت الحملة هذه إلى الحولة فصوّبت مدفعيتها على دار الأمير محمود في الخصاص في الحولة حيث مجتمع الثائرين، فهدمتها، وتقدمت فرقة من هذه الحملة فهبطت الحولة، فكان أن التف عليها العرب، فقتلوا منها مقتلة عظيمة، واضطروها إلى الانسحاب والالتجاء إلى المطلة (المستعمرة الإسرائيلية)، فأصبحت الحملة كلها ضمن نطاق من حصار العرب، وذهب منهم فريق يبلغ المائتين فهاجموا جديدة مرجعيون من ثلاث جهات. فهال الفرنسيين هجمات الثوار وأخذوا يعدون العدة للانتقام منهم.

وكانت الحملة الفرنسية قد قضت على الكثيرين من الأبرياء في طريقها، وقد مرت على قرية هونين فعاثت فيها فساداً.

وحاول الكولونيل (نيجر) إلقاء القبض على كامل بك الأسعد تلبية لطلب الجنرال غورو ظناً منه أن لكامل بك الأسعد ضلعاً في حادثة عين إبل.

ولكن الكولونيل لم يوفق بذلك لأن الأسعد كان قد غادر البلاد عن طريق الجولان متوجهاً إلى دمشق.

احتل اليهود الفرنسيون دار كامل بك الأسعد في الطيبة، ونهبوا محتوياتها وهدموا قسماً منها.

وجمع الكولونيل نيجر في ٥ حزيران سنة ١٩٢٠ م أعيان وعلماء جبل عامل في صيدا في در الأسقفية الكاثوليكية وأجبرهم بالتهديد على توقيع وثيقة تتضمن البنود الآتية:

أولاً: دفع تعويضات وغرامة حربية تبلغ مائة ألف ليرة عثمانية ذهباً.

ثانياً: إعادة المسيحيين الذين غادروا قراهم إلى ديارهم ودفع التعويضات لهم.

وعين الفرنسيون رشيد بك جنبلاط حاكماً لمتصرفية صيدا، وفؤاد عازوري حاكماً لقائم مقامية صور، ونخلة الخوري مديراً لناحية النبطية.

وقد ذهب فريق من أعيان الشيعة إلى بيروت لمقابلة الجنرال غورو وإظهار استيائهم والاحتجاج على ما اقترفه الفرنسيون من أعمال تسيىء إلى سمعتهم وتتنافى مع مثلهم ومبادئهم وشعاراتهم في الحرية والمساواة والآخاء التي يتبجحون بها ويباهون بها الأمم.

لجنة الاستفتاء الأميركية (كراين):

كان أبناء جبل عامل يطالبون باستقلالهم الذاتي ويستبسلون في الدفاع عن قوميتهم العربية، ويبذلون أرواحهم رخيصة في سبيل تحقيق ضالتهم. وقد تأصلت فيهم هذه النزعة منذ وجودهم في ربوع هذا الجبل الأشم.

وفي سنة ١٩١٨ م انتدب (ولسن) رئيس الولايات المتحدة الأميركية لجنة استفتاء (كراين) للوقوف على رأي أبناء جبل عامل في تقرير مصيرهم.

وقد حلّ أعضاء هذه اللجنة المذكورة في دار البلدية في صيدا. فتوافد على هذه الدار أعيان وعلماء الطوائف الإسلامية والمسيحية ليدلوا بآرائهم وليطالبوا أعضاء اللجنة المذكورة بحقهم في الاستقلال الذاتي التام الناجز.

وقد رفض وجهاء وعلماء الشيعة الانتداب الفرنسي رفضاً باتاً، وطالبوا بالاستقلال التام الناجز والاتحاد مع سورية تحت حكم الملك فيصل الأول.

وقد لاقى العامليون المصاعب والأهوال والشدائد في سبيل الدفاع عن حقهم في الاستقلال والحرية، وقاوموا الاستعمار بكل ما أوتوا من قوة ورباطة جأش، وقارعوا المحتلين وقدموا قوافل الشهداء قرابين على مذبح حريتهم وكرامتهم وعزّة وطنهم.

جبل عامل
في
الحرب الكونيّة

تمهيد

إن انقلاب نظام الحكم التركي عام ١٩٠٨ م من شكله الاستبدادي إلى شكله الدستوري، كان أشبه في هزّة شعور الشعوب المتكوّنة منها وحدة المملكة العثمانية، بالتيّار الهوائي في تحريكه ما يهبّ عليه من شجر نضر ونبات غض.

وظن كل شعب أنه بالغ حقه، وأن ساعة الخلاص من النظام القديم ونقائصه قد آن أوانها، وأن ميزان العدل قد انتصب، وأن تباشير صباح الرقي قد لاحت، وأن صحيفة الماضي المؤلم قد انطوت.

ولكن سرعان ما أخذ ذلك الظن يتبدّد، وتلك الأحلام تتلاشى، ونشوة السُّرور يعقبها فكر طويل وصحو مستطيل، بقبض جماعات ممن كانت لهم اليد في الانقلاب على ناصية الحال بيد حديدية، وهم زعماء جمعية الاتحاد والتَّرقي ومن لفّ لفّهم. فوزعوا السلطة الموحدة إلى عدة سلطات غير محدودة في عرض السلطنة وطولها. وأصبحت قاعدة تلك السلطات (سلانيك)[1]، ومنها تتفرع إلى غيرها بواسطة فروعها التي كاد لا يخلو منها بلد، وهي كلها مجموعة غرور وخيلاء واستئثار. وكانت بدلاً من أن تكون داعية عثمانية لا عنصرية فيها، مثار عنصريات وقوميات، ووسيلة كل

---

(١) سلانيك: مدينة يونانية، كانت حينها تابعة للسلطنة العثمانية.

استخفاف بكل عنصر غير طوراني المنبت، وعاملاً من عوامل التتريك، وذريعة من ذرائع تحكيم الأفراد الذين يمتون إليها بصلة بالجماعات الأخرى، مهما يكن مقامها في المجتمع العثماني.

كان لهذا الانقلاب الخاص الذي استوى على سوقِه وخرج من صلب ذلك الانقلاب العام، أثره غير الحميد في النفوس غير التركية، وفي النفوس التركية المعتدلة، التي تعلم ما لهذه الحركة غير الميمونة من الأثر البعيد في الجناية على السلطنة. فكانت هذه الظاهرة الغريبة، بدلاً من أن تحقق نظرية تتريك العنصريات، بذرة أنبتت اعتصام كل عنصر بقوميته.

وما كان العرب، وهم الذين ذابت القوميات الكثيرة في قوميتهم، وهم الذين تعمّد الاتحاديون الإساءة إليهم، وهم أكبر عنصر من عناصر الدولة، ليغضّوا الطرف عن تلك الإساءات، فيقفوا وقفة العاجز الجبان المكتوف الأيدي عما يراد بهم. فقاوموا تلك الحركة كما قاومها أفراد العناصر الأخرى، بكل ما يستطيعون، وشاركهم الرهط المعتدل من الترك أنفسهم في ذلك، فكثرت الجميعات الخاصة والعامة، واحتدمت نيران المعارك الحزبية والسياسية، وأخذ كل حزب يعزّز كيانه لتعزيز كيان أمته، وإنقاذها من الخطر الاتحادي. ولكن شاء القدر أن يمتلك الاتحاديون مظاهر قوة الحكم بامتلاكهم مصدرها: الجيش، فظهروا بفضل امتلاك تينك القوتين، على كل جماعة ناهضتهم، وحاولت الخفض من مقامهم. وزاد في طغيانهم طغياناً، قضاؤهم على حركة ٣١ آذار سنة ١٩٠٩ م، وخلعهم مثيرها السلطان عبد الحميد، بفتوى شيخ الإسلام.

إنّ تنطّع[(١)] الاتحاديين وقيامهم بعملية انصهار العناصر العثمانية في القومية التركية، بصورة لم تدع مجالاً للريب في سوء نياتهم، أحدث تفكيراً،

(١) تنطّع، تنطّع فلان: غالى في كلامه وتكلّف، ويقال: تنطّع في عمله، تحذّق فيه.

فعملاً لمقاومة هذه الفكرة من قبل زعماء العناصر غير التركية، فألفوا جمعية الإخاء العربي في العاصمة، انضم إليها اليوناني والأرمني والكردي والعربي وغيرهم، وأنشأوا لها صحيفة (الإخاء العثماني). ولكن ثورة ٣١ آذار ١٩٠٩ م قضت على هذه الجمعية وعلى صحيفتها.

وقام حزب (الحرية والائتلاف)، وقد انضم إليه مع تلك العناصر رهط من الترك أنفسهم، وألّفوا له الفروع في أنحاء السلطنة ولكنه باء بالفشل، بتغلّب الاتحاديين عليهم بشتى الأساليب، وباتخاذ كل الذرائع لخضد[1] شوكتهم، فكان لهم ما أرادوا.

ولّدت هذه الأعمال الشاذة فكرة احتفاظ كل عنصر بقوميته، ومطالبته بحقوقه الشرعية في هذه السلطنة المشتركة. وقام كل شعب يعمل للوصول إلى أهدافه، وللتّخلّص من السلطة الاتحادية الجائرة منفرداً ومنضمّاً. ونشط العرب خاصّة للعمل الدؤوب في سبيل الحصول على حريتهم واستقلال بلادهم، وقد رأوا أنفسهم مستهدفين للأخطار، ووجدوا سيف الاتحاديين مصلتاً فوق رؤوسهم، والسلطنة يتناثر عقدها، والخطر يحدق بها من كل جانب. وقد أعلنت اليونان ضمّ جزيرة كريت إلى بلادها، والنمسا إلحاق ولايتي البوسنة والهرسك بأملاكها، وأعلن أمير بلغاريا استقلال بلاده ورفض السيادة العثمانية.

وأسست على أنقاض جمعية الإخاء العربي جمعية المنتدى الأدبي في العاصمة التركية عام ١٩٠٩ م، فالجمعية القحطانية، فجمعية العهد، فجمعية الإصلاح في بيروت التي ظهرت بمظهر العامل على تحقيق مطالب العرب، وذلك في عهد وزارة كامل باشا سنة ١٩١٣ م. وقد انتخب

---

(١) خَضَدَ، خَضَدَ الشيء: كسره من غير فصل، وخَضَدَ شوكة فلان، كسر حدته، فهو مخضود وخضيض.

مجلسها العام تسعين عضواً، وعقدت جلستها الأولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣م، واختارت منهم ٢٥ مفوضاً سمتهم اللجنة الدائمة، وقدمت بياناً بالإصلاحات المنشودة. وكان ذلك مبنياً على طلب وزارة كامل باشا، بواسطة والي بيروت في ذلك الحين أدهم بك، تكليف الأهلين بتقديم مطالبهم. ولكن القوة الاتحادية أسقطت الوزارة الكاملية، فقضت على تلك الجمعية، وأقفلت ناديها.

ولكن ذلك لم يفت في عضد العرب العامليين، فوجّهوا وجوههم شطر[1] باريس لعقد مؤتمر في هذه العاصمة الحرة من رجالات العرب، يتفاوضون فيه بتقرير مصيرهم، ووضع لائحة بمطالبهم. فتمّ انعقاد ذلك المؤتمر الذي أقام الاتحاديين وأقعدهم، ورأوا أن لا مناص لهم من إسكاته بواسطة وفد تركي يذهب إلى باريس، فيعقد معهم اتفاقاً. وكان في ذلك الوفد رئيس المنتدى العربي عبد الكريم الخليل. وما كانت غاية هذا الوفد إلا تخدير الأعصاب العربية الهائجة، وامتلاك الوقت الكافي لمقاومة قوة الاتحاد البلقاني الذي هاجم الأجزاء العثمانية الأوروبية. وكان لذلك الجيش المهاجم الظفر على الجيوش العثمانية، بفضل السياسة الاتحادية الخرقاء، ومن نتائج إثارتها العنصرية واستهانتها بحقوق الشعوب، مما أضعفها وجعلها عرضة للطامعين في بعض أجزائها المترامية الأطراف، ورأوا الفرصة السانحة، فكان من ذلك إعلان إيطاليا ضمّ طرابلس الغرب وبرقة إليها، وسوقها الجيوش إليهما، فكانت تلك المآسي التي لحقت بسكان ذلك القطر. ولم يعتبر الاتحاديون بهذه العبر، وبهذه الخطوب النازلة في البلاد، فيُحقِّقوا شيئاً من مطالب العناصر، وفي مقدمتهم العرب، بل ما زالوا سائرين في سبيلهم، ضاربين بتلك المطالب عرض الجدار. وما كانت تلك

(١) شَطْرَ: أي نحو.

المطالب ترمي إلى التفكيك من الحظيرة العثمانية، وإنما كان هدفها تحقيق الاستقلال العنصري اللامركزي، وكانت الدولة العثمانية بدلاً من أن تعمل على تسكين ثوران النفوس الهائجة تزيد في هياجها. فأساءت إلى الألبان بإهانة زعيمهم الأكبر إسماعيل كمال بك، وإلى العرب بإهانة زعيمهم شفيق بك المؤيد.

وقاومت الانتخابات النيابية الأخيرة، التي كانت تصرف كل ما لديها من القوى، بإقصاء غير اتحاديي النزعة عنها. وإن ننسى لا ننسى تضييقها على لطفي فكري، وقد قدم لتحقيق أماني حزبه (الحرية والإئتلاف) في ذلك الانتخاب، وصنيعها بإرسال قوة لتهديد كامل بك الأسعد في قريته الطيبة، لأنه كان قد انضم إلى ذلك الحزب، وحملته بالتهديد والوعيد على ترك حزبه، والانضمام إلى حزبها، حتى أظفرته بمقعده النيابي.

بمثل هذه التدابير، وبمثل هذه السياسة، كانت تعامل كل من لا يمت إلى أحزابها بصلة.

وعقدت اتفاقها مع ألمانيا، فكان ثالثة الأثافي[١]، وجرَّها إلى مغامرة الحرب العامة، وما اعتبرت بعبر تاريخها، وما أصيبت به من انتقاص الأطراف، بعد أن كانت غالبة في ميادين كل حرب تشهرها أو تشهر عليها، بل قذف بها الغلواء[٢] الاتحادي إلى هذه الهوَّة البعيدة القرار. وما كان ذنب العرب، وهم أمة لها قديمها، ودم الإباء العربي ما زال يجول في عروقها، والكثير من بلادها لم يفقد مزايا استقلاله، وفاقدها ما زال يحلم باسترداد

(١) أثفَ: أثفاً، ثبت واستقر، وآثف القدر وضعها على الأثافي، والأثفية مفردها، وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر، والمعنى واضح، فاتفاق تركيا مع ألمانيا جرها إلى الحرب العالمية التي كانت نهايتها فيها.

(٢) الغلواء: الغلو والمبالغة، وغلواء الشباب حدته، والمعنى سوء التقدير والتهور.

سليبه. وهل من الحكمة أن يترك كل عمل في هذا السبيل؟... وهو جد عليهم بخطر ما استهدف به الاتحاديون المملكة العثمانية، وبما سيؤول إليه مصيرها.

إن العرب لم يخفروا ذمام[1] الترك، ولم يحاولوا الخروج من سلطان العثمانية، شرط أن يكون لهم استقلالهم اللامركزي ولكنهم وقد خيّروا بين الموت والحياة، وبين السلة والذلة، ورأوا الإرهاق والعسف، حتى وهم والترك يد واحدة في الحرب العامة، يخوضون غمارها معهم جنباً إلى جنب، ويسامون الضيم في ساحاتها، وفي عقر دورهم. فهل بعد ذلك كله يختارون لأنفسهم الموت والذلة؟؟؟...

أعلنت الحرب، وأعلن النفير العام، وما فارق العرب الطاعة، فاندفعوا إليها، ومشوا إلى الميادين التي سيقوا إليها مشية الليوث الضارية. وكان على قابضي أيديهم على ناصية الحكم والجيش، أن يقدروا لهم مواقفهم المجيدة، وأن يتناسوا الأحقاد (وعند الشدائد تذهب الأحقاد) ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل رموا قبلة آمالهم سوريا بطاغيتهم جمال باشا السفاح، الذي ظهر بمظهر المنتقم والسلطان غير المسؤول، وقد تمتع بقوة هائلة لم يحلم بها الملوك المستبدون، فبدلاً من أن يتألف النافر، ويؤنس المستوحش، ويسدل الستار على بادرات سبقت، أو يترك الإسراف في الانتقام، ويراعي بمن بيّت لهم الغدر إخوانهم المنتشرين في الميادين، فيعمل بقول القائل (لأجل عين ألف عين تكرم). شكل المحاكم العرفية في دمشق وعاليه، فور استلامه زمام قيادة الجيش الرابع العامة، وأخذ ينفذ خططه المنظمة بواسطتها، وينتقم من كل من له ضلع في جمعية من

---

(١) خفر الزمام: حفظ العهد، والخفارة الذمة والعهد، ومنها الخفارة، والمخفر والخفير أي الحارس،

الجمعيات الآنف ذكرها، ومن كل من له سابقة في العمل لقضية بلاده، ومن كل من يمشي إليه به مشّاء بنميمة، وما خلت أمّة من أمثالهم، وخلا لانتقامه الجو، وجعل لنفسه السلطة في تكييف أحكام تلك المحاكم على هواه.

آنس عبد الكريم الخليل، وهو شاب غرّ لم تهذبه التجارب، ولم يمارس بعد أساليب السياسة ودهاءها، وخدعه بابتسامات يضمر تحتها الحقد العظيم، ولعبد الكريم خصوم، خصوم الحسد على ما بلغه بأخلاقه الطيبة، وغيرته الوطنية الصحيحة من المكانة العالية، بتسنمه بعصاميته وعبقريته رئاسة المنتدى الأدبي، وهي الرئاسة التي كانت مطمح أنظار الكثيرين من الشبيبة العربية، وخصوم المناظرة على المقعد النيابي. وكان من أعظم خصومه من يرون أنفسهم أولى بكل زعامة، لا بفضيلة علم ولا تهذيب نفس ولا بعصامية، بل بعظامية[1] بالية توارثوها، وتكاد تكون هي كل ما يتذرعون بها لنيل كل عظمة وسيادة.

وكان الشيخ أسعد الشقيري، وعبد الرحمن بك اليوسف، وكامل بك الأسعد الزعيم الشيعي، الذي لا يرى أهلاً لزعامة شيعة جبل عامل بل لشيعة سوريا غيره. ومما أحفظ[2] كامل بك على عبد الكريم، تقدمه بترشيح نفسه للنيابة عن جبل عامل الذي لم يكن له غير مقعد واحد في المجلس النيابي العثماني. وكامل بك كان اتحادياً، وعبد الكريم ائتلافياً. وكان قد طلب إلينا، لأننا كنا من أعضاء هذه الجمعية أن نتقدم إلى مركز الجمعية في بيروت بترشيحه باسم الائتلافيين، فأجبناه إلى مقترحه، ولكن

---

(١) العصام: حبل تشد به القربة، وعروة الدعاء، والعصامي من ساد بشرف نفسه، ويقابله العظامي وهو من ساد بشرف آبائه.

(٢) احفظ: من الحفيظة، وهي الغضب والحمية.

بعض من أحسن بهم عبد الكريم الظن، وكلفه بتوقيع الترشيح، وشى بنا إلى كامل بك. وجرى بيننا وبينه حديث أظهر فيه كل ما في نفسه من الحقد على عبد الكريم وعلى مدى استيائه منا.

إن كامل بك وأضرابه ممن يستثقل ظل عبد الكريم، تحينوا الفرصة السانحة، فوشوا به إلى جمال باشا، وهو في القدس الشريف. وكان كامل بك قد كتب بالوشاية إلى صديقه الشقيري، وما أسرع أن استدعى جمال باشا كامل بك إلى القدس، فلبى الدعوة مصحوباً ببعض بطانته ومنهم فضل بك الفضل.

أما مصدر الوشاية فهو أن عبد الكريم المطمئن إلى جمال باشا، قد سعى إلى إدخال أعضاء من صيداء ومن جبل عامل في جمعية العهد، وهو كما أسلفنا آنفاً قليل التجربة، قليل الخبرة بالرجال، فباح بأمور، وهي التي ذكرها جمال باشا في مفكراته، وفي الإيضاحات عن المسائل التي جرى تدقيقها في عاليه، إلى السيد محمد إبراهيم من علماء جبل عامل، وهذا أسرع فنقل الحديث إلى بعض أهالي قريته أنصار: عبد المنعم عاصي.

فواجع البلاد السورية في الحرب العامة:

تداعى السوريون عند إعلان النفير العام للتجنيد، ولم يتخلف منهم إلا من أعفاه من الخدمة قانون أخذ العسكر الجديد.

وكان لعلماء الشيعة، بفضل توسط والي بيروت أبي بكر حازم بك، إجابة لوفدهم، نصيب من ذلك الإعفاء، باعتبارهم أئمة ومؤذنين، وإن لم يكونوا حاملي براءات سلطانية أو مراسلات من المشيخة الإسلامية. وكان ذلك الامتياز خاصاً بهم فنجا منهم من التجنيد من أسعده الحظ فأثبت إمامته في مسجد من المساجد، ومن قصّر كان من الهالكين في الحرب، ولم ينظر إلى منزلته العلمية والدينية.

أعقبت سنة إعلان الحرب سنة هاجم الجراد فيها زروع البلاد وأشجارها المثمرة، فأتلفها إلا القليل. ولكن ذلك العام انقضى، وشبح المجاعة لم يبْدُ له ظل. وكان من لطفه تعالى أن أخصب العام الذي يليه، ولكن المصادرات التي اتخذتها السلطات لم تدع أثر نفع للسكان من ذلك الخصب.

الإرهاب والانتقام:

لم يكد يتسلم جمال باشا قيادة الجيش الرابع، وتطأ قدماه بلاد الشام، حتى أخذ ينفذ الخطة المدبرة فيها، فكانت فاتحة أعماله، إعلان الأحكام العرفية، وتشكيل محاكمها كما سبق الإلماع إليه آنفاً، وطفق يُعمل سيف الانتقام في الرقاب، باستصداره أحكامها، حسب ما يمليه عليها، على رجالات سوريا ولبنان موزعة على نسبة ما يسند إليهم من الجرائم، بين النفي والشنق. ونشر في عرض البلاد وطولها جواسيسه، وضباط استخباراته، يرفعون إليه من الوشايات الكاذبة ما يزيد في مدى الإرهاب والترويع والانتقام. وكان من ذلك أن كثر فساد الضمائر، وبلغ كل خصم ما يرمي إليه من النكاية بخصمه، وأصبح من الكافي في الإيقاع بالنفوس البريئة في التهلكة، مجرد السعاية بالأشخاص بانتمائهم إلى حزب من الأحزاب المضادة لحزب الاتحاد والترقي، وإن كثيراً من الأعيان الذين أبعدوا إلى الولايات الأناضولية مع أسرهم، ونالهم ونال أسرهم من التعذيب وإزهاق الأرواح ما تضيق عن شرحه الصحائف، وهم لم يجنوا ما يستحقون عليه عشر معشار ما وقعوا فيه من البلاء النازل والظلم الشامل، وجلهم لم يحاكموا لتثبت إدانتهم أو براءتهم، بل أُخذوا أخذ عزيز مقتدر بمحض السعايات المختلفة، وبمجرد الظنة والتهمة اللتين لا تثبتان على التحقيق النزيه. وقد كنا في محكمة عاليه العرفية نحواً من ثلاثين متهماً ومنهم رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل، وما كانت الشهادات التي يدلي بها الشهود المزيفون تدين شخصاً منهم، وكلها مستمدة من منبع واحد وهو أن منهم من كان ينتقد الاتحاديين ومن كان

ينتمي إلى حزب الحرية والائتلاف أو حزب الإصلاح أو حزب العهد أو الجمعية القحطانية، أو من ينقل حديث تنفيذ دول الاتفاق خطة مدبرة وهي اقتطاع صلة الفيلق الرابع بفيالق الأناضول عن طريق إسكندرونة، وهو ما نشرته في ذلك الحين جريدة الاتحاد العثماني، وما إلى ذلك من الأمور. وكان يغذي تلك السعايات جماعة من رجالات الاتحاديين في بيروت وصيدا ومن تنزلق إليهم من الآهلين كطلعة الكردي قومندان جندرمة صيدا. وعادل بك مأمور ليمانها، ومن الأهلين الحاج مصباح البزري وأخوه ومن لفّ لفهما من المتنازعين على النفوذ في بلدهم. وما كنا لنحلم أن تلك الأمور الملفّقة مما يؤدي إلى الإدانة من أحد منهم، وما كانت شهادة الشهود إن أدانت رضا بك الصلح بعض الإدانة لتدين عبد الكريم الخليل.

استمرت المحاكمة على أولئك الأشخاص مدة سبعة أيام في ١٤ جلسة، في كل يوم جلستان. وإذ ذاك أوقفت المحاكمة ـ اللهم إلا استدعاء بعض أفراد منهم لبعض استيضاحات ـ مدة ٥٣ يوماً. فكانت النتيجة إطلاق سراح الجميع إلاّ رضا بك وعبد الكريم الخليل وبهاء الدين بك، وإلى استدعاء أشخاص آخرين بأثناء هذه المدة كمحمد وأخيه محمود المحمصاني وعبد الغني العريسي وغيرهم. ثم في النهاية كانت تبرئة من كان في القافلة الأولى. وانتهت الرواية بنفي من نفي كرضا بك وولده رياض بك وبهاء الدين الزين، والحكم بالموت على من حكم عليه كعبد الكريم الخليل والعريسي ورفقائهما.

وهكذا أخذت حال النكال[1] في الاستفحال[2] بين محكمتي دمشق وعاليه العرفيتين، وبين النفي الإداري، إلى أن امتلأت أجواء البلاد السورية

(١) النكال: الإنتقام.
(٢) استفحل الأمر: عظم شأنه.

بأنفاس الخائفين وأنين المظلومين. وما كان الأمر لينتهي عند التنكيل في تلك القوافل التي كانت تساق للمحاكم، ولا لتسكن ثائرة نقمة جمال باشا لتقف عند تلك المآسي، بل كان يضمر الشر لمختلف الطبقات، ولم تكن لتقف به موقف القصد، فيخفف شيئاً من ذلك الإسراف في الإرهاب والإخافة، شفاعةُ الشافعين، حتى ضاق أعلام العرب، وفي مقدمتهم الشريف حسين (ملك الحجاز) ذرعاً بما يجنى على كبار رجالات أمتهم، فثار ثورته التي لولاها لنفذت خطة مبادلة السكن التي كان قد دبّرها الاتحاديون للخلاص من عرب الشام، وإسكان الأناضوليين في بلادهم وإسكانهم في الأناضول، ليتمّ لهم ذلك الحلم حلم إدغام العنصر العربي بعنصرهم التركي. ولقد قال الأمير شكيب أرسلان لكامل بك الأسعد: لولا ثورة الملك حسين لكنت أنا وأنت وكل طبقة تشعر بالنور من الهالكين.

لم يرحم جمال باشا (وهو ينفذ الانتقام بأروع صوره) الشيوخ والأطفال وهم يساقون إلى المنافي، ولا رجال الدين العاملين، فكان منهم مثلاً محمد سعيد بك حماده كبير الحماديين ومن كبار زعماء لبنان وسعيد باشا سليمان والشيخ أحمد عباس، وكل منهم في سنه المتقدمة، فالأولان تناهز سنهما ٨٤ والثالث في الثمانين، إلى مئات من علّية القوم، وأضعاف هذا العدد من النساء والأطفال الذين فقد منهم العدد الكبير في معاناة الأسفار البعيدة إلى البلاد الغريبة عنهم وجهاً ولساناً. وما كانت وسائلها سهلة المنال ولا كان تسفير أمثالهم، ممن صبّت عليهم النقمة، مما يراعى فيهم الرفق، وقد خلفوا ما خلفوا من أملاك ودور وقصور وأثاث ورياش، تتلاعب بها أيدي المصادرة والسلب.

ودع عنك نهباً صيح في حجراته   وهات حديثاً ما حديث الرواحل[1]

(١) البيت لامرىء القيس، وهو وارد في نهج البلاغة الخطبة ١٦٢.

أما ما كان يقاسيه المجندون في ساحات الوغى من الازدراء والتحقير والترويع والتجويع والقذف بهم في لهوات المهالك، وما أصاب من خلفوه وراءهم من ضعفاء النساء والأطفال والعجزة، من الفقر والفاقة، وقد حجز بينهم وبين من كان يكفلهم، وما صبّ على أُسر من فرّ من التجنيد من التخويف والامتهان فحدّث عنه ولا حرج.

أما التحكم في الأقوات ومصادرتها ومنعها عن مستثمريها، وهي مادة حياتهم، ومصادرة التجارة على عروضهم، وانتزاع ما تملكه أيديهم منها، وإكراههم على التعامل بالورقة التركية بقيمتها الذهبية، واستبدالها بالذهب تحت سوط العذاب، وما إلى ذلك من التفنن في العسف والإرهاق، فهو مما لا يراد منه إلا القضاء على الأمة جوعاً. وقد امتنعوا عن تموين الجيش، وكانت الأهراء مملوءة من الأقوات، وكان جلهم يموتون جوعاً وكانت ممنوعة عنهم:

كالعيس[1] في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

دع حديث السلطة المطلقة التي أناطها (جمال) بأفراد الجندرمة وصغارهم وعريفيهم، فكانوا ينفذون حكم الموت شنقاً أو رمياً بالرصاص في كل من همّ بالفرار من الجندية، فكانت تنصب لهم أعواد المشانق في صور والنبطية وبنت جبيل، ويقتلون بأيديهم الأثيمة في الطرق كل من لا يملك فدية عن نفسه، حتى أصبح كل دركي في كل قرية (جمالاً) يتفنن في التعذيب والتقتيل والمصادرة والنهب، وكم من قتيل بأفظع صور القتل، إلهاباً بالسوط، إلى أن يُقضى عليه.

وفي عام ١٩١٦ م و١٣٣٣ هـ، بينما كانت تنقل غلات إلى أحمد منيمنة من تجار بيروت، من حوران إلى بيروت، وقد قطعت مسافات طويلة بين مرجعيون والنبطية، وقد قطعت جسر الخردلة، اعترضها (محمد علي

(١) العيس: الجمال والنوق.

التركي) عريف درك النبطية. واجتهد المكارون في تخليصها، وتمّ لهم ذلك بدفعهم له ٢٨ ريالاً مجيدياً رشوة. ولما بلغ الأمر صاحبها شكا الأمر إلى والي بيروت (عزمي بك)، فاهتم لذلك، ولكن ماذا كانت نتيجة الاهتمام؟ كانت أن نظم العريف تقريراً، واستعان ببعض من لا خلاق لهم، يتضمن أن الجندي الفار سعيد كلوت من النبطية هو الذي اعترض الغلات، وزعم أنه العريف. وما أسرع أن قبض على سعيد البريء، واستصدر حكماً من مرجعه بصيدا بإعدامه، فكان له ما أراد في صبيحة يوم الاثنين ٥ ذي القعدة ١٣٣٣ هـ أعدمه شنقاً، وهو اليوم الذي تقام فيه سوق النبطية العامة.

ومن فظائع الجندرمة أن العريف المسمى بالحاج بدر العكاوي المقيم في مخفر قرية أنصار، أوقعت الأقدار في براثنه امرأة من قرية عيناتا، كانت قادمة من صيدا، فصوّر لها ورفقاؤه الخطرَ على عرضها إن ظلت متابعة سيرها، وحملوها على أن تذهب معهم إلى مركز المخفر في أنصار، لتبات ليلتها، ويبعث بها العريف في صبيحتها مع من يؤمن لها طريق الوصول إلى قريتها. ولكن ما أن جن الليل حتى سطا هو ورفاقه على عرضها، وعاونهم جماعة على إنقاذهم من شكواها التي رفعتها إلى القائمقام العسكري كامل بك العشي الذي اقتصَّ لها منهم.

وإنّ من أعمال خلف الحاج بدر (غرة البيروتي)، أنه كان يوغل في ظلم من يمت إلى الفار من الجندية بسبب، ومن لا يمت، وهو يندفع وراء ذلك بعاملين: عامل الطَّمع بالفدية وعامل الانتقام، ومن أمثلة عسفه وظلمه أن رجلاً فاراً سلَّم نفسه إليه، وهو من قرية عين قانا من إقليم التفاح من أعمال جبل عامل، ولكن ذلك المسكين لم يُجْدِه استسلامه نفعاً ولا دفع عنه شر ذلك الغاشم، بل أطلق عليه وهو في حالة التسليم رصاصة أردته قتيلاً. وفعل من الفظائع في أقارب فار من قرية جباع قاعدة أعمال التفاح في جبل عامل ما لا يجري به القلم.

كان يأتي من مخفره في أنصار إلى النبطية في يوم الاثنين، وهو يوم السوق العامة، ويتجول فيها ويبتاع ما يشاء مما يقبضه من راتبه من الورق التركي، على سعر كل ليرة تركية بليرة ذهبية من غلات وغيرها، وهو يبيعها من طالبيها بسعرها الذهبي، وله وراء قوّته قوّة جندرمة النبطية تعضده وتمده.

وفي ٨ ربيع الثاني ١٣٣٥ هـ بينما كان رجلان يسيران في طريقهما، إذ اعترضهما الدركي إبراهيم الجركسي، وأطلق عليهما الرصاص بزعم أنهما فاران من الجندية، فأصاب من أحدهما مقتلاً، ولإتمام تشخيص روايته الفظيعة، أحضر جثمانه إلى مخفر النبطية، وبعد مكثه مدة أربعة أيام بلا دفن حتى تفسخ، دفن بعد إشراف هيئة التحقيق على ذلك.

ومن أمثال هذه الضحايا أنه في عام ١٣٣٦ هـ بينما كان رجل من صيدا فاراً من الجندية، صاح به دركي وهو لم ينتبه لصياحه، وظل متابعاً سيره، فأطلق عليه رصاصة أصابته في مؤخر رأسه وخرجت من جبهته فذهبت بعينيه وبحياته. ومنها موت الرجل المدعو الشيخ زين من قرية الصرفند من أعمال صيدا من جبل عامل، تحت ضرب الجندرمة، لأنه لم يدلهم على سارق أحد أعمدة التلغراف، وهو في الواقع لا يعرف السارق. ولما شكا أهله أمره إلى المراجع العدلية، وقف قائد الدرك إذ ذاك طلعت بك الكردي في وجه التحقيق وإنفاذه في مرتكبي جرم القتل قائلاً إنه يأبى كل الإباء أن تكسر معنويات الجندرمة، فأسدل الستار على هذه الجريمة. هذه أمثلة من حوادث الإرهاب نعدّ منها ولا نعددها، لأن في استقصائها خروجاً عن الغرض.

المجاعـة:

إن الجراد وإن أضرّ في محاصيل بعض الجهات عام ١٣٣٣ هـ فلم يكن من مسببات المجاعة، وفيما سلم منها من سطوة الجراد، وفيما يمكن

جبره من نقصانها من الجهات الأخرى التي سلمت منه، ما يسد حاجة البلاد المتضررة، وعلى افتراض تعذر جبر النقصان إن كان هناك نقصان يؤدي إلى التلف، فإن الحكومة مسؤولة عن الاحتياط لهذا الأمر، وإسعاف الفاقد من بلد الواجد[١].

وفي الحق فإن السلطة العسكرية لو تركت تجارة الغلات حرة، ولو أكتفت من تموين الجيش بمقدار الحاجة، ولم تفتح باب المصادرة على مصراعيه لكل منتسب إليها، وإلى الحكومة وموظفيها، ولم تمتد الأيدي حتى إلى الأقوات الضرورية، لما كان لعام الجراد المهاجم لبعض الجهات أثر يذكر في المجاعة، ولو لم تتخذ المصادرة سنة متبعة في ذلك العام والأعوام التي تلته، وكلها أعوام إقبال في الزرع لكانت تزيد مواسمها على حاجة البلاد، وعلى حاجة الجيش، هذا بالإضافة[٢] لو أنه روعيت الحاجة فحسب، ولم تملأ الأهراء المنسوبة إليه بما يزيد على أضعاف أضعاف حاجته، حتى يتلف أكثرها، فلا ينتفع منه الأهلون ولا الجيش نفسه الذي أصابه من الجوع ما أصابهم. دع ما تسرَّب منه إلى جيوب المصادرين من رجال الجيش والسلطات المحلية الذين انقلبوا تجاراً في مادة حياة الجيش والأمة، ولم يزعجهم أنين الجياع من ضعفائها الذين فارقهم إلى التجنيد من كان يعولهم، ولم يكونوا وهم في الميادين أسعد حالاً منهم.

(وحسبك داءً إن تَبِيتَ بِبِطنةٍ وحَوْلَك أكباد تحنّ إلى القدّ)

إن هذه المصادرات، سببت قتل حرية التجارة في الأقوات وغير الأقوات من ضرورات الحياة، فالحرص على ما يسلم منها ممنوع من

(١) أي استيراد القمح من بلدان أخرى.
(٢) بالإضافة (لحقيقة) لواته روعيت الحاجة.

الوصول إليه، فالاحتكار عند مصانعي[1] السلطات، فالغلاء الذي جاوز حدود طاقة ذوي الأعواز إليه، فالمجاعة القاتلة، فالمآسي الناجمة عنها من انتشار المعوزين والمعوزات من موت وهتك أعراض وقتل نفوس وأوبئة، هذا وصف الحال العامة التي سببتها السلطات.

ونذكر أمثلة مما ينطبق على هذه الحال العامة من الحوادث المؤلمة التي حدثت في هذه البلاد.

إن النبطية حاضرة جبل عامل لمدة متوسطة بين لبنان وسوريا وفلسطين، مرتبطة بها بصلات تجارية، تكاد تنحصر موارد ارتزاق سكانها بتجارتها وسوقها العامة، التي يؤمها البائع والشاري من تلك الأقاليم، فكانت بموقعها وبهذه السوق من أفضل الأهراء للغلات في الحرب العامة كما كانت في السلم معرضاً لمختلف أصناف التجارات.

مُنيت هذه البلدة وكل من يرتادها بائعاً أو شارياً، بمن يقصدها على الدوام في موعد انعقاد السوق كل يوم اثنين من كل أسبوع، وفي غيره من الأيام، من رجال السلطات الذين لا هدف لهم إلا المصادرة وإملاء الجيوب، من أموال المتاجرين والعارضين ما يحملونه إليها من البائسين، فكانت تقام إلى جانب تلك السوق سوق النهب والسلب والرشوة، ومن يسلك منهم طريقة الاعتدال في ابتياع ما يزعم احتياجه إلى ابتياعه من غلات وغير غلات، يحمل نقده ورقاً تركياً ينقده للبائع المكره، على أساس اعتبار الليرة الورقية ليرة ذهبية، فيدفع قيمة ما يبتاعه بسدس قيمته أو ثمنها أو عشرها، وقد يبتاع كل ما يعرضه ذلك البائع البائس، فيرجع بالصفقة الخاسرة.

مُنيت النبطية عام ١٣٣٤ هـ و١٩١٦ م بقائمقام صيدا وهو من ذوي

(١) مصانعي: من الصنيع أو اليد، والمعنى أزلام السلطات.

البيوتات المعروفة بدمشق بالثروة والوجاهة، فجعلها قاعدة للمصادرة أو التجارة، فكان يقصدها على حين غفلة مصحوباً بقوة من الجندرمة معززة بقوة جندرمة النبطية، فيغشى بها المحال التجارية على مختلف معروضاتها، فيصادر من الغلات ومن الأرز والسكر والسمن وما إليها، مبلغ ما يرمي إليه طمعه وجشعه، ويقوّم أسعارها بما يمليه عليه ضميره وضمير من يصحبه من بطانته. وينقد أثمانها بعد حين ورقاً تركياً إن أحب دفع الثمن. وقد أصاب من ضرائبه المنوعة القرى المجاورة للنبطية البلاء العظيم.

قدم النبطية مرة، ونزل في بعض منازل وجهائها، وبوصوله استدعى تجار الغلال، وقد أقفلت زبانيته حوانيتهم، وطلب إليهم إعطاءه بياناً بما تحويه، ولم تكن تحوي إلا القليل، وبعد إعطائه البيان ورجوعهم، وشى بهم بعض من لا خلاق لهم بأنهم غير صادقين في بيانهم، وأنهم يخفون غيرها في محلات أخرى. فأمر حالاً قائد الجندرمة بإحضارهم إلى دار الحكومة بعد أن أمرهم بإحضار مقادير من الغلال لا يطيقونها، ولا يجدون إليها سبيلاً. وأعمل فيهم ذلك القائد، وجلّهم من الوجهاء، السوط والضرب المبرّح حتى رأينا بعضهم لا يستطيع المشي من شدة الآلام، ثم صودر جميع ما في حوانيتهم من الغلال.

هذا مثل واحد من الأساليب التي كان يستعملها هذا القائمقام الظالم وأمثاله في هذا البلد، ومثل ذلك كان يجري في البلاد الأخرى التي كانت تتاجر في الغلات.

انصرفت همة السلطات إلى المصادرة على الأقوات، وهمة الجندرمة المكلفة بضبط الأمن على ترصد الطرق على المتاجرين في الغلات، حتى انحصرت التجارة فيها على التهريب. وكيف بعد هذا، لا يقل عرضها، ولا تغلو قيمتها، ولا يتملك شبح الخوف النفوس، وسلطان المجاعة البلاد، ولا يهلك البائس الضعيف جوعاً؟؟؟...

لا يمكن تعليل هذه الظاهرات، وإلقاء السلطة الحبل على الغارب[١] لمن ينتمي إليها، لإتيان هذه المناكير إلا بقصد إجاعة البلاد، وقذفها في تلك الهوة السحيقة، كما أنها هي التي أرادت تجويع من يحمل معها السلاح في ميادين جبهة فلسطين من أهل هذه البلاد.

إن أهرء الجيش في فلسطين وفي دمشق وفي حلب وفي حوران، وفي كل قاعدة من قواعد فصائله، وفرقه، كانت فياضة بالغلات وبكل الأقوات التي كانت تقوم بتموينه مدة سنين، ولكن السلطات العسكرية كانت تمنعها عمن تستند في حربها على سواعدهم، وتتركها عرضة للتلف، فتتلف بمنعها وإتلافها نفوس جنودها.

إننا مهما حاولنا أن نعلل أسباب المجاعة، فلا نجد تعليلاً صحيحاً لها إلا السلطات نفسها، وإلا فإن الأرضين لم تخصب خصبها في سنوات الحرب، وخصبها كافل بتموين ساكنيها وتموين الجيش، وما كان سواها سبباً للمجاعة ومآسيها التي لم يرو لها التاريخ مثيلاً.

لقد شاهدنا بأم العين ضحايا الجوع تتساقط في الطرق، وفي الأزقة وفي الشوارع، وأنينهم يملأ الفضاء. ورأينا منهم من يتداعى إلى جيف الحيوانات، ويزاحم بعضهم بعضاً على اقتطاع قطعة منها يقتات بها. وأدت الحال إلى استمراء كثيرين لحوم الآدميين، واقتناص ضعفاء البنية من الأطفال الهائمين على وجوههم، كما تقتنص الطريدة. وقد نقلت لنا أحاديث كثيرة عن ارتكاب الجائعين أمثال هذه الحوادث، في كثير من الجهات، فلا نذكر منها إلا ما تحققناه، وقد عرفته الحكومة.

منها ما حدث في أيار سنة ١٩١٧ م ورجب سنة ١٣٣٥ هـ في الدامور

---

(١) القاء الحبل على الغارب: أي الإهمال والغارب، الكاهل أو العنق.

من أعمال لبنان، من افتقاد الطارئين[1] على هذا البلد وراء طلب القوت، أربعة من أولادهم بين آونة وأخرى، واختفاء آثارهم، وهم لم يفارقوا البلد، ولا يمكّنهم صغر سنهم من مفارقته. فلفت ذلك انتباه الجندرمة المرابطين والمحافظين على الأمن، وبينا هم يتجولون ليلاً في أزقّة البلد، أدت بهم خاتمة المطاف إلى بيت فقير، فشمّوا رائحة لحم يطبخ عنده، في هزيع من الليل، وهم يعلمون فقره المدقع الذي لا يتمكن معه من القوت الضروري، فارتابوا بالأمر، وطرقوا عليه الباب ففتحه، ولما دخلوا البيت، رأوا قدراً على النار، فكفأوا عنها الغطاء، فوجدوا أعضاء آدمي فيها، ولحماً مفروماً، وقطعاً من الكبد يشتغل في شوائها، فهالهم ما شاهدوه، وفتشوا في جوانب البيت، فرأوا أربعة رؤوس، وهي رؤوس الأطفال الأربعة الذين افتقدهم آباؤهم، فساقوا ذلك المجرم مخفوراً إلى بيروت مزوداً باللعنات.

وفي ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ هـ و١٨ آذار سنة ١٩١٨ م جيء بامرأة من قرية جرجوع من أعمال النبطية، كانت قد ألقتها خاتمة مطاف التسول، في قرية كفرصير من أعمال النبطية، وقد عُثِرَ عليها وهي تقيم في بيت منفرد في القرية، وتقتات بلحوم أطفال كانت تغريهم وتذبحهم الواحد بعد الآخر، ووجدوا بعد التفتيش في بيتها رأسي آدميين، وقد اعترفت بذبحهما، أحدهما اسمه عبد الحسن والثانية اسمها حفيظة، وهما في السن السابعة والخامسة.

هاتان حادثتان سببتهما المجاعة، أوردناهما بعد الوقوف على حقيقتهما. ولا نرتاب بوقوع كثيرمن أمثال هاتين الحادثتين، لأن الجوع الذي حمل ذلك الرجل الداموري وتلك الامرأة على فعلتهما، يحمل غيرهما على ارتكاب مثلها، ولولا أن للمرتَكَب فيهم تلك الجناية الفظيعة،

---

(١) الطارىء: أي الوارد، وقد كان الناس يهاجرون من بلد إلى بلد سعياً وراء الطعام.

أهلاً يفتشون عليهم، لعمي أمرهم. وإن من الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم وأباءهم ومن يكفلهم، سواء كان من الجوع والأمراض أم كان من التجنيد، ما لا يحصيهم العد، كانوا يتنقلون من بلد إلى بلد، على قدر استطاعتهم في التنقل، وليس وراءهم من يسأل عنهم وعن مصيرهم، ومن فقد منهم لا يحصى، وقد يكون أصاب بعضهم ما أصاب أولئك الأطفال من ذينك المجرمين.

الغـلاء:

قد ذكرنا آنفاً أسباباً معقولة للغلاء، يتبين منها أن العامل الأكبر فيها سوء النية. وإن الغلاء وما نجم عنه[1] من المجاعة، مقصودان من السلطة التي كانت تتحكم في الأنفس والأقوات، بلا رأفة ولا رحمة، وإلا فما بالها تصادر الأقوات وتصادر حرية التجارة فيها. وما كانت منتجات الأرضين التي لم يسبق لها مثيل في الخصب، لتقصر عن الإيفاء بضرورات[2] الأهلين وتموين الجيش الذي كانت تضيق إهراؤه بالمجموع منه من هنا وهناك، حتى بلغنا أن محطات السكة الحديدية وغيرها، كانت تكدس فيها الغلات أكداساً، والكثير منه مطروح في الأرض غير مستوعب في جوالقه، ومنه ما كان يتلف في حرارة الشمس وفي الأمطار، وأبناء الأمة وحتى أفراد الجيش ممنوع عنهم سد رمقهم، دع ما كان يصدّر منه في شاحنات السكة الحديدية إلى المانيا. أفلا يدل ذلك دلالة واضحة على أن تجويع البلاد أمر مقصود من السلطة التي لم تكن تنظر إليها إلا نظرة العداء!!!...

إن هذا الغلاء ذرّ قرنه[3] في السنة الخامسة عشرة بعد الألف والتسع

(١) نجم عنه: حصل بسببه.

(٢) الإيفاء بضرورات الأهلين، أي كفاية حاجاتهم للتموين وغيره.

(٣) ذرّ قرنه: أي ظهر.

المائة، وأخذ في التصاعد إلى سنة ١٩١٨ م، وما كان مقتصراً على الغلال فحسب، بل شمل كل ضرورات الحياة. وآخر ما بلغه سعر مدّ[1] الحنطة وهو خمسة أرطال إسلامبولية وربع الرطل، ثلاثمائة قرش على سعر الليرة الذهبي مائة واثني عشر قرشاً رائجاً، والذرة البيضاء والصفراء (٢٣٠) والشعير (١٢٠) والعدس (١٢٠) والباقية (٥٠) والكرسن (٤٠) والفول (٦٠)، ورطل الأرز الحولاني (٨٠) وأوقية السكر (٢٥) وصفيحة زيت البترول أربع ليرات عثمانية ذهباً.

إن هذا الغلاء، مع غل الأيدي عن العمل، وتجنيد العاملين ومصادرة حرية التجارة، والحيلولة بين العائلات، وهن نساء وأطفال وشيوخ، ومعظم معيليهم بالتجنيد، سبَّب ما سبَّب من تلك الفجائع التي لم تر لها الإنسانية مثيلاً في عصر من عصور التاريخ. وما كان ما تملكه بعض العائلات من أثاث وأمتعة ومقتنيات بل وأملاك لتسد الرمق، وهي قد تدنت أسعارها تدنياً عظيماً، لا يفي إلا ببعض الضرورات المؤقتة. فكان الفقر، وكان المرض، فالموت جوعاً، في عقر البيوت، وفي أزقة القرى وشوارع المدن والطرقات، وكانت حوادث هتك الأعراض، واستباحة المحرمات. وفقد كل رأفة وحنان من القلوب.

مجنّد يموت جوعاً، ومثله من تركه وراءه، وأنين مالىء الفضاء، ولا من راحم من محكوم أو حاكم.

الفرار من الميادين:

أما أسباب الفرار من الميادين فقد كانت تجويع المجندين، ولم يقتصر

(١) مدّ: جمع أمداد ومداد ومَدَدَة، ضرب من المكاييل سُمي بذلك لأنه يمد المكيل بالمكيل مثله، ويتجزأ إلى نصف مُدّ ورُبْعيّة وثُمْنيّة. والمُدّ يساوي ١٨ ليتراً إفرنجياً على التقريب.

على الوطنيين السوريين وغيرهم من العرب، بل شمل العناصر الأخرى التي كانت في مجموعة الجيوش من الترك وغير الترك، وتفضيل الجندي الأجنبي من ألماني ونمساوي عليهم في الأقوات وفي الراحة وفي أمرة الجيش، في الجبهة الفلسطينية، واهتمام الفار في نفسه وفي تخليصها من آلام الجوع، وفي عائلته التي تركها ولا كافل لها.

واستفحل أمر الفرار، بعد فشل الحملة في فتح الديار المصرية، وخاصة في أواخر سنة ١٩١٧ م وأوائل سنة ١٩١٨ م ولئن كان يفر الواحد والاثنان من ساحة الجبهة من الوطنيين، فقد كان يفر العشرات وما فوقها من أبناء الترك أنفسهم، بما يحملونه من الأسلحة، حتى امتلأت منهم الديار العاملية المجاورة لفلسطين. وكان من الفجائع التي لم يدون مثلها التاريخ بسبب هذا الفرار، ما تضيق الصحف عن تفاصيله واستيعابه، فقد التجأ بضعة نفر بأسلحتهم إلى دار الزعيم العاملي كامل بك الأسعد، ونمي[1] خبرهم إلى القوة المرابطة بالجديدة، فحصل بينهما عراك في باحة تلك الدار الواسعة، وفي حجرها، ما كاد يهدم تلك الدار على سكانها، واللاجئين إليها لكثرة ما أُلقي عليها من القذائف، وانجلت المعركة عن قتل أولئك المساكين الذين فروا من الموت الأصفر إلى الموت الأحمر.

وحدث مثل ذلك مع نفر فارين من الترك، في ضاحية كفرتبنيت، على مسافة ثلاثة كيلومترات من النبطية. وقتل بسبب المعركة التي حدثت بينهم بين الجندرمة بعض الأهلين، كما قتل بعض الفارين. وهكذا كانت الحال في كثير من الجهات، وهكذا سرى الفشل في الجيش، وانتقل من انتقل من الميادين إلى التقاتل في البلاد وإخافة أهلها.

---

(١) نمى: من النمو، ونمي الخبر إلى فلان، ارتفع إليه أي بلغه.

هذه ثمرة ما كان يجنيه ولاة الأمور بسياستهم الملتوية، وهذه إلى غيرها من الأسباب التي ذكرناها في تضاعيف هذه الأوراق، أدت إلى ما أدت إليه من النتائج، وما كان مسببوها غير جمال باشا ومستشاروه والمتطوعون من الترك، والمنتشوون من خمرة الانتقام لا من سكرة الظفر في العراك والصدام.

فهل يلام من التحق من العرب برجال الثورة العربية ومن فر منهم من الجبهة، وقد شاركهم إن لم نقل سبقهم إلى الفرار جنود الترك أنفسهم، وقد لمسوا الخطر بأنفسهم، وتبينوا أنه لا يراد من سوق الجيوش إلى هذه الجبهة الظفر بالأعداء المحاربين بل بالأعداء الوطنيين.

الأوبئــة:

منيت البلاد بالمصادرة على الأقوات، ومصادرة حرية التجارة، وبالغلاء وبالجوع، وبمآسي الأوبئة التي تسببت عن الجيش وعن الجوع. فتفشت الحميات الخبيثة، وأعظمها حمى التيفوئيد فحمى القمل أو التيفوس، فقضت على الألوف من الأرواح التي سلب منها الجوع والخوف كل مناعة.

جراحات الأمة الدامية من بعض زعمائها:

إن في الأمة، في كل أدوار حياتها وتطورها، فريقاً من الزعماء الذين لم تتهذب نفوسهم ولا تعرف للواجب معنى، ولا يهمهم إلا الإفتئات[١] بحقوقها، والتحكم بأعشارها وأبشارها[٢]، ولا يتلمسون الزعامة من غير طريق الاستسلام للقوة الغالبة، ومصانعتها، ولو كان في تلك المصانعة

(١) افتأت برأيه: استبد، وافتأت عليّ الباطل، اختلقه. والإفتئات الظلم والإستبداد.

(٢) الأعشار، ضريبة على الغلات فرضتها الدولة العثمانية، والأبشار: ما تخرجه الأرض من الثمار والخيرات.

هلاكها. ظهر منهم غير واحد في هذه البلاد التعسة، يظاهرون السلطة الغاشمة عليها، ويناوئون بقوتها خصومهم في الزعامة، فكان شرهم عليها مستطيراً، ولو كانوا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، لعلموا أنهم يجنون على أنفسهم قبل جنايتهم على أمتهم. لقد كانوا أداة تخريب وتهلكة لأنفس بريئة، بيد جمال باشا، وتفننوا بسعاياتهم لديه بما يرهقها ويرهق رجالاتها الذين هم خصومهم. ولم يسلم من شرهم مستنير، وما كانت أحكام عالية، وما نُصب من أعواد لشنق أحرار الأمة، وتغريب جماعات، وسجن جماعات أخرى، إلا ثمرة من ثمرات سعاياتهم. وما كان جمال بهم رحيماً، وهو ينوي تنفيذ خطته فيها وفيهم، ويضمر في نفسه السوء لكل زعيم ومتزعم، دع فكرة إجلاء العرب عن بلادهم إلى بلاد الترك، وإسكان الترك مساكنهم، تنفيذاً لمبدأ تتريك العناصر الاتحادية.

لم يشف غليل بعضهم الكتاب الذي بعث به إلى شريكه في السعايات الشيخ أسعد الشقيري، وهو مرافق جمال في القدس وفي حله وترحاله، متضمناً الوشاية بنيف وثلاثين رجلاً من صيدا وصور ومرجعيون والنبطية، فكانوا في القافلة الأولى، فنجا منهم من نجا من الموت، ونفي من نفي، وشنق من شنق، حتى أقاموا لجمال، بعد أن نصب أعواد المشانق في بلادهم، ولم يجف دم ضحاياهم، معالم الزينة، ومظاهر الاحتفاء به، وقد زارهم ببطانته ورجاله، وحتى قام منهم من يحبذ صنيعه ولم يكتم بعض بطانة جمال نشوة الانتقام من بعض تلك الضحايا صديقه الذي مثل دور القافلة الأولى، فيقول له غير متأثم ولا متحرّج إنا أرحناك من عدوك عبد الكريم الخليل.

وحتى قدّم أخوه اقتراحاً للمجلس العمومي في بيروت، وهو من أعضائه، فبنى عليه المجلس قراره وهو أنه وشى برهط صالح من النبطية، يدير بكل أمانة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية فيها، بأنهم يملكون

منشآت تلك الجمعية الموقوفة، ويتصرفون في ريعها ويتخذونها في أغراض سياستهم التي هي ضد الدولة، فكان من ذلك أن حضر عزمي بك والي بيروت في ذلك الحين، واستدعى أعضاء الجمعية واستلم منهم دفاترها، وأقصاهم عنها، وسلمها إلى حكومة الناحية.

ولم تضع الحرب أوزارها، حتى أشفى[1] أكثر أملاك الجمعية على الخراب، ولما علم أنهم لا يحسنون التكلم باللغة التركية حين خاطبهم، هاله الأمر، وقال: إنكم تحسنون التكلم باللغة الفرنسية، فأجابه بعضهم: إن من لم تساعدهم الحكومة بفتح المدارس في بلادهم ليتعلموا لغة دولتهم، فمن أين يتسنى لهم أن يتعلموا لغة غيرها؟؟؟...

ولما سألهم عن الصناعات الموجودة في بلدهم، وكأنه قادم إليها من الصين، وهو بها غير عليم، أجابوه أنه لا يوجد غير بسائطها كما هو الحال في أمثاله من البلاد، وتمنوا أن تكون له يد صالحة في إنشاء دار صناعة فيها، معلقين تمنيهم على مشيئته تعالى. فتبرم من هذا الجواب، وسخر منهم بتعليقهم ذلك العمل على مشيئته تعالى وقال: إنني لم أجد شعباً خاملاً يستنزل كل شيء من مشيئة الله كالشعب السوري، وأنه سمع مثل ذلك من كل من حادثهم بهذه الأمور من أهل هذه البلاد الكسالى.

وهكذا كانت الوشايات من أمثال أولئك الزعماء، تصب على رؤوس هذا الفريق من النبطية وغير النبطية، حتى كانت تنظر إليهم الحكومات المحلية كأعداء لا كأصدقاء.

الثورة العربية:

إن الثورة العربية لم تقم كما كان يصورها أعداء العرب من الغريب

---

(١) أشفى على الهلاك: أي اشرف عليه.

والقريب، لمحض عداوة الأتراك، ولا لمجرد التفكك من المجموعة العثمانية، ولا للطمع بالإمارة والملك، بل كانت مستندة إلى أسباب معقولة، منها ما ذكر في تضاعيف هذه الوريقات، ومنها أن العرب لامسوا الخطر المحدق بهم بأيديهم، وشاهدوه بأبصارهم، ورأوا خطة الإفناء تنفذ فيهم بشتى الوسائل، ورأى المختلطون بالساسة الاتحاديين، البادرة إثر البادرة التي لا يراد منها إلا إرهاقهم، وصبّ سوط النقمة عليهم، بمختلف الأساليب. ورأوا أن خطة تقسيم الرجل المريض(١) وانحلال حياته، أمر لا محيص عنه، وأن بلادهم إن سلمت من خطر الحلفاء، فلا تسلم من خطر الألمان أنفسهم، دع ما كان يحدث به جمال نفسه من الاستئثار بسلطنة العرب، والخروج عن حظيرة أمة الترك، فهل يلامون إذا سعوا للخلاص من تلك الأخطار، وتكوين أمة عربية ذات ملك عربي مستقل؟؟؟...

وما كانت الأمة العربية لتفقد مزايا استقلالها في عصر من العصور، إن سادتها القوة الجامحة أحقاباً، وهل يلامون والملك العثماني ينتثر عقده(٢)، وبلاده تنتقص من أطرافها من هنا وهناك، وسيف الانتقام مصلت فوق رؤوسهم، إذا ثاروا ثورتهم، وعملوا جهد طاقتهم على إنقاذ تلك البقية الباقية من براثن الظالمين، ومَنْ أولى بإنقاذ أمته من الملك الحسين، وخيرة آله وأبنائه. وما كانت الثورة وقد تبينت مناشئها وأسبابها، وانضمام جماعات العرب على اختلاف مذاهبهم تحت لواء الثائر العظيم والمنقذ الأعظم الملك حسين وأبنائه، إلا بعد أن احتاط للحصول على العقبى الصالحة بالمواثيق، ووراء ذلك قد خلص الحجاز البائسة، وقد انقطعت عنها موارد عيشها، من براثن الموت جوعاً.

(١) الدولة العثمانية: كانت تلقب في أواخر عهدها بالرجل المريض،

(٢) ينتشر عقده: تتفكك أواصره، وتضعف دولته.

التفنن في الضرائب:

عمرت في الحرب سوق الضرائب، وتفننت فيها الحكومة ما شاءت، وزاد عمالها في التفنن، وهكذا الجباة وغير الجباة ممن له ضلع في خدمتها، مهما يكن نوع تلك الخدمة، حتى بات الشعب كريشة في مهاب الأعاصير، أعاصير استصفاء[1] ما يملك بدون حد ونظام، بطريق المباشرة وبغير المباشرة، وضم إلى الضرائب المباشرة كالمرتبات الأميرية ضميمة الحرب، وبعد أن سنت قانوناً في النفير العام، تحظر به قبول فدية التجنيد مالاً ممن يتمكنون من الفدية ولا يتمكنون من التجند بدناً، عدلت ذلك القانون أو ألغته بقبول الفدية عن عام واحد مالاً كبيراً لا يستطيعه إلا الأقلون، ثم أباحت قبول قيمته أنواعاً من الغلات فتعهدت بخدمات في بعض مرافق الجيش. وأصدرت ورقها التركي من فئات من القرش الواحد إلى المائة ليرة على أساس النقد الذهبي، وملأت منه الخزائن، وعرضته على الأسواق التي غصت به، وقد زاد عن الحاجة. وأجبرت الأمة على التعامل به على ذلك الأساس بطرق الإكراه. ونعمت به الحكومة وموظفوها، وشقيت به الأمة حيث أخذ يتعامل به بنوها كسلعة خاضعة للعرض والطلب، فهي مجبرة على قبضه على الأساس الذي وضعته الحكومة، ومضطرة إلى التعامل به على غير ذلك الأساس، فكانت تتكبد منه من جراء ذلك أعظم الخسائر الفادحة. ولو أن الحكومة ولفيف عمالها قنعوا بأن يكون في أيديهم منحصراً في المبايعات لهان الأمر، ولكنهم جعلوا من التجار صيرفيين يكرهونهم على المبادلة به ذهباً عيناً بعين بدون أقل تفاوت. وقد رأينا كبار عمال الحكومة يحملون الألوف منها ليستبدلوه بالذهب، وهو أساسها بزعم أن عرب البادية والحوارنة لا يقبضون أثمان ما يحتاج إليه الجيش من الجمال للنقل والغلات إلا ذهباً.

---

(١) أي تقدير الأملاك موضوع الضريبة أو أخذها من غير تبرير.

فكان من هذه العملية العجيبة البلاء العظيم على التجار، مضافاً إلى البلايا النازلة عليهم من هنا وهناك، وعلى الفلاح الذي كان يفرض عليه فرضاً قبولها بقيمتها ثمناً لما يصادرونه من غلاله.

ثم سنّت السلطة سنة ١٣٣٦ هـ و١٩١٨ م قانون الإعاشة، وهو جباية ١٢,٥٠٪ من حاصلات الفلاح باسم ضريبة العشر، و٢٥٪ باسم إعاشة موظفيها، هذا في الغلات الشتوية والصيفية و٢٥٪ من التين و٥٠٪ من الزيت والزيتون والزبيب والدبس. وقد يذهب تخمين عمالها لحاصلات الفلاح من مجموع هذه الأصناف بالحاصلات كلها، وقد زادت هذه الضريبة الجديدة على هذه الطريقة الجائرة، في عسر البلاد وحلول البلاء واستفحال المجاعة، واستحواذ اليأس والقنوط على النفوس.

ثم سنت قانوناً آخر سمته بقانون قرض الحرب، ووزعته توزيعاً جائراً على عموم القرى، وكان عظيم بلائه مصبوباً على الفلاحين، وكان المضروب على كل قرية يُستوفى نقداً. والقرية التي لا تستطيع تقديمه نقداً كانت تُصادر ماشيتها، وتُباع لاستيفاء القرض. وكان القائمون بجمعه يمثلون أفظع مظاهر الشدة وقد يدخلون مما يجمعونه في جيوبهم أضعاف المفروض، دع الضرائب الأخرى التي كانت تصب على رؤوس الأهلين بلا قانون مسنون، اللهم إلا ما يسنه عمال الحكومة كبارها وصغارها، فإن استيعاب مجرياته وتفاصيل حوادثه مما يضيق عنه المتسع.

بمثل هذا العسف الذي لا مدى له، كانت تُساس البلاد، وبمثل هذا الإحراج الذي لا حد له، كان جمال وعمال جمال يُلجئون السكان إلى نزع كل عاطفة من الإخلاص للدولة ـ في وقت حاجتها إلى هذا الإخلاص ـ من الصدور، فكانت الأجسام معها والقلوب عليها، وهكذا تكون سياسة كل دولة في إبان احتضارها، وفي دور اضمحلالها.

السكان سواسية في الأسواء:

إن المسلمين سنيهم وشيعيهم ودرزيهم ونصيريهم، والمسيحيين على اختلاف مللهم من سكان هذه البلاد، كانوا سواسية في الأسواء، ولم يختص الأذى ملة دون ملة، ولا فريقاً دون فريق. وأصاب التعذيب والتقتيل والتجويع والتدمير والإفقار رجالاتهم جميعاً. وما كان سيف النقمة مصلتاً على رقاب غير المسلمين، لأنهم غير متدينين بدين الإسلام دين الدولة، بل كان مصلتاً فوق رؤوسهم لأنهم عنصر عربي، وأنهم كلهم أعداء الجنسية التركية، بزعم رجال الحكم الاتحاديين، ولم نجد أدنى دليل على التفاوت بينهم في الإرهاق وإيصال المكروه.

التضامن السوري العربي:

وحّدت المظالم السوريين، وقد لمسوا مكروهها مصبوباً عليهم بلا تفريق، وتحققوا أن السياسة العنصرية التي غذاها الاتحاديون وخلقوها خلقاً سوياً، هي التي جرّت عليهم ما جرته من البلايا والرزايا، فتناسوا بينهم كل ما غرسته فيهم سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) فظهروا بمظهر من التضامن رائع. وما ذرّ قرن الثورة العربية[1] حتى التحق منهم من التحق بها، مندفعين بشعور واحد وبعامل واحد مجرد عن الدين والمذهب، اللهم إلا دين الوطنية يتلمسون الخلاص والإبقاء على البقية الباقية التي سلمت من عوامل التدمير والإفناء التي شملتهم جميعاً، وصيرتهم إخواناً، ونزعت ما في صدورهم من غلّ لم يكن إلا من صنع المتغلب الظالم.

نظرة عامة على ما سبق:

هذا هو تصوير بعض ما منيت به البلاد السورية من حوادث الحرب، وخلاصة ما كنا نسجله منها في مفكراتنا في خلواتنا، وما هو إلا غيض من

---

(١) ذر قرنها أي ظهرت.

فيض مما لو حاولنا بسط تفاصيله لضاق به المتسع، وإننا لننتقل بالحديث إلى ما لم نجد أحداثه بعد الحرب أقل روعاً في النفوس العربية وأيسر خطباً من أحداث الحرب، وهي حوادث ما بعد الاحتلال.

الثورة العربية:

إن الثورة العربية التي قام بها المرحوم جلالة المنقذ الأعظم الملك الحسين وأبناؤه وآله وخاصته ومن انضوى إلى لوائها من رجالات العرب العراقيين والسوريين والحجازيين، لم تكن ثورة يُراد منها الخروج من حظيرة العثمانية أو جامعتي الخلافة والإسلام، والاستسلام لأعدائهما كما صورَّه خصوم الثورة الشريفة، أو محض الطمع بخيلاء الملك وزهوه، كما زعمه آخرون، ولا مجرد الاسترسال إلى الوعود غير الوثيقة العرى من الحلفاء كما يحاول البعض إلصاقها بحامل لواء تلك الثورة، ولكنها كانت ثورة إحقاق حق مغصوب، ووليدة استخفاف فيه من قبل غاصبيه، ونتيجة سياسة كانت تعمل في الجلاء[١] والخفاء على إذابة الأمة العربية في بوتقة[٢] التركية، أو على إفنائها من جديد[٣] الأرض. دع ما ترمي إليه من الأغراض الأخرى من مَحْو رسوم الخلافة الإسلامية، واستبدال التركية بالجامعة العثمانية، والقضاء على الأسرة المالكة، وما إلى ذلك من الأمور التي كان يدبرها الاتحاديون، والخطط العقيمة التي بدأوا في تنفيذها خطة فخطة، وبالأخيرة نتيجة مغامرة رجالاتهم في خوض معمعان الحرب إلى جنب الألمان وأحلافهم، دع ما ظهرت آثاره للعيان من تفكيك عرى ذلك الملك الواسع عروة فعروة، ومن مطامع الألمان في البلاد العربية مضافاً إلى طموح رجالات الاتحادية في إمارة بعض أجزائها، إلى مثول الخطرين المداهمين

---

(١) الجلاء: الظهور والعلن.

(٢) بوتقة: إطار.

(٣) جديد: ويقال جدّة، وجُدَّة وجمعها جُدَدَ وهي وجه الأرض وقد يقال لما استوى منها الجَدَدْ، قال تعالى: ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾.

للعرب، خطر الحرب وخطر بسط النفوذ الأجنبي عليهم، واستيثاق رب الثورة حيال هذين الخطرين بالعهود المكتوبة من أحلافه بصيانة حقوق أمته. هذا وما إليه هو الذي دفع به إلى الوقوف في صفوف الحلفاء، وهو الموقف المشرف الذي دلت عليه الحوادث، فمحاسبتهم، وقد رجحت كفتهم وانتهى إليهم الظفر بخصومهم، على تحقيق المبرم من تلك العهود الصريحة، فهل بعد هذه التدابير وبعد إبرام تلك المواثيق ما يدع مجالاً لملام ذلك الثائر العظيم لإنقاذ أمته المنحصر في وقوفه بجنب الحُلفاء، ممن أرادوا التضليل وتشويه وجه الحقيقة الناصعة؟؟؟...

لا جرم أن الحوادث وما كان للمنقذ الأعظم من العاقبة في سبيل إحقاقه حق أمته ما يبرهن على إخلاصه، وأنه لم يكن عاملاً إلاّ على خيرها، وعلى إحباط ما كان يُكاد لها. وإذا أبى إنصافه غير واحد منها، ولم ير من تلك الآثار والشواهد وما آلت إليه حال من كانوا يتصرفون في أمور المملكة العثمانية الواسعة، ما يبرر مواقفه الشريفة، فإن تاريخ الاستقلال العربي سينصفه، وقد بدأ بإنصافه، ويكتب له صحيفة خالدة مملوءة بالتضحية والمفاداة والإخلاص، والعاقبة للمصلحين.

أثر الثورة البارز في تقصير مدى الحرب:

إن الثورة قصرت مدى الحرب في الميادين التي قامت فيها على سوقها[1]، في فلسطين سورية والعراق وبعض أجزاء الجزيرة العربية، وأنقذت العرب لا من مآسيها وفجائعها فحسب، بل منها ومن سياسة الإفناء وإجلاء سكان بعض أطرافها عن ديارهم، وإسكان الأتراك فيها، ومن رزايا الحرب نفسها، ومن براثن المجاعة والأوبئة والظلم الفادح. وكانت قوة للأحلاف اعتزت بها جبهتهم في فلسطين، وأخذ الوهن بسبب هذه الثورة، ومن فشل

(١) قامت على سوقها: أي نهضت، والمقصود أماكن نشاطها.

حملة (جمال باشا) لافتتاح الديار المصرية، يتطرق إلى صفوف العثمانيين وحلفائهم. وما كانت محاولة افتتاح مصر في عام ١٩١٦م إلا حلقة من حلقات الخذلان، والحلقة الثانية تغلب الجيوش البريطانية على الجيوش العثمانية في العراق، والحلقة الثالثة انضمام ثائري العرب إلى صفوف المحاربين. وما ذرّ قرن عام ١٩١٧م إلا عن ضعف الجبهة التركية في فلسطين، وتعزيز قوى الأحلاف بقوى الثائرين العرب. وأعقبه عام ١٩١٨م الذي كان مطلع انتصارات للأحلاف، وطالع انكسارات متتابعة للأتراك وحلفائهم، وقد قبض ثائرو العرب على خطوط الاتصال بين أجزاء الجيوش التركية، وقطعوا المهم من الخطوط الحديدية التي كانت تصل الحجاز بفلسطين وشرق الأردن وبعض أطراف سورية، وملك الوهن والضعف جوانب الجيوش التركية، وكثر في هذا العام الفارون من صفوفها، حتى امتلأت البلاد منهم، وهي المجاورة لجبهة فلسطين، كجبل عامل وما يتاخمه[١]، وجلهم من الترك، وكادت تصبح هذه البلاد جبهة حرب بين الفارين ومن تعقبهم من بعض الوحدات ومن الدرك، واستمر ما بينهم القتل، وزاد ذلك في المخاوف. ولولا تمكين الأحلاف من ضعضعة الجيش التركي، ومن إسقاط البلاد التي كانوا يحاصرونها في أيديهم، لما كان مدى ولا حد للفجائع الجديدة التي سببها الفرار. وما كانت المراقبة الشديدة وحرص قلم الاستخبارات التركية على إخفاء ما حاق بالترك وحلفائهم من الوهن والفشل لتقوى على إخفاء الأنباء علينا، فكنا نتلقاها من ألسنة الرواة القادمين من البلاد المجاورة للجبهة، وكنا نسجلها بمفكراتنا. وهكذا كان الرجاء بقرب انفراج الأزمة يتمكن من النفوس، بعدما كاد يستحوذ عليها القنوط[٢].

(١) يتاخمه: أي يجاوره، والتخوم هي الحدود.

(٢) لاحظ مقدار الأذى الذي أصاب الناس من الأتراك بحيث اعتبروا انكسارهم بأية صورة نوعاً من الفرج الذي يزيح كابوسهم عن كواهل الناس، وهذا ما سيظهر من موقف الكاتب فهو ليس حباً بالحلفاء بقدر ما هو املاً بالفرج.

تمكنت قوات الحلفاء من امتلاك جبهة بعيدة المدى، بفضل انضمام العرب إليها، ممتدة من الشرق والجنوب حيث بادية سورية ونجد والحجاز إلى البحر الرومي غرباً، وبامتلاكها هذه الجبهة التي تركت الجيش العثماني عرضة لخطوط نيرانها من الجهات الأربع، وباستكمالها أسباب هذه الخطة، تسهلت لها حرب الهجوم في أيلول عام ١٩١٨ م، فكانت تضيّق الدائرة على الجيش العثماني الذي أمعنت وحداته في التراجع إلى الشمال، وفقد في كثير من وحداته النظام، وتفككت أجزاء تلك الوحدات بفرار العرب منها إلى إخوانهم الثائرين وبفرار الترك أيضاً، إلى حيث يطلبون النجاة. وقد أخذت القوى العثمانية المرابطة في بعض الخطوط المتصلة بمراكز الجيش العامة، تترك مواقعها وتنضم إلى المواقع التي هي أمنع منها. وفي ٢٣ أيلول سنة ١٩١٨ م تركت القوة المرابطة بالجديدة مركزها، وأبقت ما جمعته من الغلال بطرق المصادرة وإعاشة الجيش المملوءة منها الإهراءات للناهبين، واستاقت[١]، وهي ذاهبة إلى دمشق عن طريق القنيطرة، أربعين رأس بقر لأهل القليعة على مقربة من الجديدة.

وفي هذه الأثناء، وقد تم الانتصار للحلفاء، بعث جلالة الملك فيصل رسلاً إلى كثير من زعماء البلاد السورية بكتب يستحثهم فيها على طرد الأتراك وولاتهم من حواضر البلاد، وإعلان الاستقلال العربي وممن قدم رسولاً من جلالته يحمل كتاباً بهذا المضمون إيليا ذيب إلى كامل بك الأسعد، ولكنه لم يجرؤ على الإسراع بالعمل به إلا بعد أن تيقن سقوط الثغور البحرية، بعد سقوط درعا وشيوع سقوط دمشق، ورأى فلول الجيش التركي تملأ البلاد، وطلائع جيوش الإنكليز تزحف على الثغور البحرية، فتصل إلى عكا وصور وصيدا وبيروت.

---

(١) استاقت: أي ساقت (البقر) في طريقها.

أما الأنباء التي تلقيناها في ذلك الحين عن سقوط درعا وحيفا، وكان فيهما القضاء الأخير على الجيش العثماني وإخراجه من البلاد، فتلخص بأن قوات الحلفاء والعرب اغتنمت فرصة تفرق كثير من قواد الجيش العثماني المأذونين، فاتخذت خطة هجوم ممتدة على خط مستقيم من درعا إلى حيفا. تولى جيش العرب بقيادة الملك فيصل وإخوانه ونواف الشعلان والدروز الهجوم من الجبهة الشرقية، والإنكليز وأحلافهم من الجبهة الغربية، فنجحت هذه الخطة نجاحاً مبيناً، أدّى إلى ضعضعة الجيش العثماني على طول الجبهة. ولما شعر هذا الجيش بتنظيم هذه الخطة الهجومية وخطرها، فتح أبواب المستشفيات المملوءة بالمرضى والجرحى، وحملهم على الخروج بالإكراه، فهلك زهاء نصفهم إعياء[1] وجوعاً.

إعلان الاستقلال العربي:

وفي ٢٤ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٦ هـ، ١ تشرين الأول سنة ١٩١٨م، دخلت طلائع الجيش العربي دمشق، وقد قطعت المسافات الشاسعة بسرعة مدهشة لم يسطر لها التاريخ مثيلاً، وطاردت فلول الجيش العثماني ومن انضم إليه من الجنود الإلمانيين والنمساويين، . وقد تم لها هذا الفتح المبين ولم يكن بينها جندي أجنبي. وفي اليوم نفسه، وقد خلت دمشق وبقية البلاد السورية الداخلية والساحلية من ولاتها العثمانيين، تولى زمام الحكم المؤقت، ريثما تنجلي الحال عن حاكمها الحقيقي، الأمير سعيد الجزائري، وأعلن الاستقلال العربي، وطيّر البرقيات إلى زعماء البلاد في الداخل والساحل يفوض إليهم ولاية الحكم المؤقت وإعلان الاستقلال. وهذا نموذج من برقياته التي وردت على محمود بك الفضل من زعماء جبل عامل في النبطية حاضرة الجبل بتوقيع رئيس الحكومة السورية العربية سعيد الجزائري:

(١) إعياء: تعب.

(١) «اعلنوا الاستقلال العربي قبل وصول الإنكليز والعرب أو غيرهم، حتى إذا وفدوا رأوا كل شيء مهيّئاً، فيحق لكم الاستقلال الكامل».

(٢) «اعلنوا الاستقلال العربي قبل وصول أحد ليكون لكم الحق بالاستقلال الفعلي، إن جاءكم الإنكليز بلغوهم استقلالكم، تخابروا مع صيدا وبيروت والملحقات لأنها أعلنت الاستقلال، حضّروا الوفد لمقابلة الإنكليز، يجب ألاّ يكون لأحد سلطة أبداً إلا للعرب، أهنئكم، أشكركم».

(٣) «إياكم أن يسهى مأمور التلغراف في النبطية عن واجبه في تطيير البرقيات، لأني أريد تأمين المواصلات بين دمشق وبيروت بطريق صيدا، هذه خدمة وطنية، أشكركم».

ارتاب محمود بك في البرقية الأولى التي وردته ضحى الثلاثاء في أول تشرين الأول، وأحجم عن إعلان الاستقلال حتى وردت عليه البرقيتان الأخريان، ومع ذلك توقف إلى مفاوضة من يثق بآرائهم، فاجتمع بفريق من اللد، فيهم الأستاذان الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، فأطلعهم على البرقيات الثلاث، واتفق رأيهم جميعاً على وجوب العمل بمضمونها، ولكنه لم يطمئن إلى ذلك كله إلا بعد مخابرة صيدا وصور، عمّا إذا كانت قد وردت عليهما أمثال هذه البرقيات، وما انجلت له الحقيقة إلا بعد عصر هذا اليوم، فذهب بجماعة من وجهاء البلد إلى دار الحكومة، بعد أن نشرت الدعوة للاجتماع في دار الحكومة على الأهلين. وهناك تليت عليهم البرقيات الثلاث، وارتجلت بعض الخطب بإعلان الاستقلال العربي، وبلزوم طاعة الحاكم الموقت، وبالحث على السكينة وعدم إيذاء أحد من الموظفين الأتراك وغير الأتراك.

وتسلم الحاكم المؤقت دار الحكومة، وجرى تنظيم الحكم المؤقت، وفوض إلى جماعة أمر المحافظة على الموظفين وعلى الأمن. وبفضل هذه

التدابير، ساد السكون في هذا البلد وملحقاته، ولم تمتد يد سوء إلى أحد من الموظفين، وجلهم إن لم نقل كلهم ممن له سابقة غير محمودة وأثر غير مشكور مع الأهلين.

جرى كل ذلك وكامل بك الأسعد الذي وفد عليه رسول الملك فيصل إيليا ذيب بكتابه الذي يفوض به إليه حكم البلاد المؤقت، ويطلب إليه إعلان الاستقلال العربي، وطرد عمال الأتراك من صور وصيدا ومرجعيون، قابع في كسر بيته لا يبدي ولا يعيد.

وفي اليوم الثاني الأربعاء ٢٥ ذي الحجة و٢ تشرين الأول، اطلعنا على صورة المنشور الذي بعث به الأمير سعيد الجزائري إلى جزين وملحقاتها، يعلن فيه الحكم العربي باسم سلطان العرب الأول الملك الحسين بن علي، وينبىء بدخول الملك فيصل بجيوشه الكثيفة دمشق، وبتشتيت شمل الجيش التركي، ويحثّ الأهلين على الألفة والوئام.

وفي هذا اليوم حضر إيليا ذيب إلى الجديدة معلناً الاستقلال العربي، واستيلاء الملك فيصل على دمشق باحتفال حافل، وفيه انتخب الصيداويون رياض بك الصلح حاكماً على صيدا وملحقاتها، ونظّم الإدارة تنظيماً حسناً. وورد في هذا اليوم كتاب من كامل بك الأسعد على محمود بك الفضل وأخيه فضل بك، يحبذ فيه إعلان الحكم العربي في النبطية، ويخبرهما بالكتاب الذي ورد عليه من الملك فيصل من أحد معتمديه، بإعلان الحكومة العربية، وأنه سيرسل أخويه إلى الجديدة مع معتمد الملك فيصل لإعلان الحكم العربي، وقد أعلن فيها في هذا اليوم.

ونشر كامل بك دعوة عامة في أنحاء البلاد العاملية، لعقد اجتماع في قريته الطيبة، يُتلى فيه على المجتمعين كتاب الملك فيصل، ويعلن فيه الاستقلال، وقرر بالاتفاق مع محمود بك وفضل بك عقد اجتماع عام في

النبطية يوم الجمعة في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ هـ و٤ تشرين الأول سنة ١٩١٨ م، يحضره هو ومعتمد الملك فيصل إيليا ذيب الخوري والمدعوون من قبله من وجهاء جبل عامل، لإعلان الاستقلال العربي، والخطبة والدعاء للملك حسين، والبحث في ما يجب أن يُتخذ من القواعد لإدارة البلاد. وقبل قدومه بيوم اتخذ إهراء لتموين المجتمعين، وفي اليوم نفسه حضر، يصحبه المدعوون من الوجهاء وعدد كبير من رجاله بعددهم الكاملة.

وفي مسجد الحسينية الكبير الذي غصّ بالمجتمعين، تُلي كتاب الملك فيصل، وأُعلن الاستقلال العربي بمحضر فريق من كبار علماء جبل عامل، ورُفع العلم العربي، وتُليت خطب متعددة، ودُعي للملك حسين والملك فيصل وإخوانه. وضم الحشد المسلم وغير المسلم، وكان مظهراً جميلاً جداً، وجرت هناك أمور بعد فض الاجتماع.

وعُقد اجتماع خاص لتقرير المصير اصطدمت فيه نظرية بعض المفكرين بنظرية كامل بك الذي رأى ومن وافقه على رأيه أن تقرير مصير البلاد منحصر بأعيان البلاد وما يبرمونه هو النافذ، وأن كامل بك يملك التفويض من الملك فيصل الذي هو الحاكم العام للبلاد السورية. ولم يرتح إلى المعارضة التي رأت وجوب التريث في الأمر، منتظرة ما يقره الملك فيصل والأحلاف، وأن ينحصر العمل في إقرار الأمن وتجنب الفوضى وجمع الكلمة.

وكان كامل بك غير راض عن تولّي رياض بك الحكم في صيدا وملحقاتها، وأنه هو الذي يجب أن يكون له حكمها وحكم جبل عامل، وأن تكون النبطية قاعدة الحكم، وأن يعمل على إنزال رياض بك عن منصة حكم صيدا.

وهكذا استأثر هو ومن لا يخالف رأيه، بتنفيذ هذا القرار.

وفي يوم السبت في ٢٨ ذي الحجة، ٥ تشرين الأول ذهب بوفوده مع بعض العلماء إلى صيدا، وكانت قد بلغتها بعض الفصائل الإنكليزية، وبلغه ذلك في أثناء الطريق، ولما كان مصحوباً بقوة من رجاله مسلحة، فقد أشير عليه بأن يدخل فيها صيدا مجردة من السلاح، فعمل بالمشورة، وذهب الوفد إلى دار الحكومة، وكاد يحصل ما لا تحمد عقباه بين رجاله والصيداويين، وانتهى الأمر بفشل خطته، وبإنذار القائد الإنكليزي له. فعاد أدراجه إلى النبطية برجاله ناشراً دعوة ثانية في البلاد لدعوة من تخلفوا عن الاجتماع الأول، وكان قد ورد برقية من الجديدة تنبىء بقدوم شكري باشا الأيوبي وجميل بك الألشي ومحمد بك رستم حيدر وفصيلة من الجند، للاستيلاء على ولاية بيروت وسائر لبنان، وإعلان الاستقلال العربي فيهما. وقد دخلوا النبطية ليلاً، وباتوا فيها ليلتهم، وسافروا صبيحة الأحد في ٢٩ ذي الحجة و٦ تشرين الأول إلى بيروت، حيث أعلن شكري باشا الاستقلال، ولكنه لم يلبث إلا أياماً ولّى فيها حبيب باشا السعد حاكماً على لبنان، ولم تستقر له الحال حيث أخذت الفصائل الإنكليزية والفرنسية تحتل بيروت.

وفي ١١ تشرين الأول وصل إلى بيروت (الكولونيل د بياباب) فاستلم الحكم في المنطقة الشمالية، وأقام على لبنان حاكماً عسكرياً إدارياً، وهكذا لم يطل الأمر حتى تبين فساد نظرية كامل بك، وانجلت الحال عن اقتسام إدارة البلاد بين رجالات الحلفاء العسكريين، فكان جنوب سوريا تحت حكم البريطانيين، وشمالها تحت حكم الفرنسيين، وسورية تحت حكم الملك فيصل، والمرجع العام لقائد جيوش الحلفاء العام المارشال اللّنبي البريطاني.

أثر الاستقلال العربي في نفوس الوطنيين:

إن الارتياح لإعلان الاستقلال العربي شمل أبناء سورية وفلسطين ولبنان، فكانوا جميعاً مشتركين في مسراته على اختلاف مللهم. وما كانت

لتنتهي الحرب، ويتقلص ظل الأتراك إلا على وحدة عربية لا مسيحية فيها ولا إسلامية، وهي التي أوجدتها المظالم المتحدة ومساوىء الحرب ومآسيها، وكادت هذه الوحدة بمظهرها الأنيق أن تأتي بأطيب الثمرات لو لم تقم سوق السياسات المتعاكسة. وسرعان ما تبدلت تلك الروح الطاهرة، واتُخذت المذاهب قاعدة للتفريق. وهكذا انقسمت الآراء بين أهواء السياستين الإنكليزية والفرنسية، ولكليهما أتباع وأنصار. فنبشت الطائفية بعد أن ركدت ريحها السموم من مدفنها، وأصغى إليها من غرّته بروق المطامع والاستهواء بالمناصب عن استحقاق وغير استحقاق، فكان لها أثرها السيىء في النفوس، وفي انتشار الفوضى واستحكام النفور، فكانت الأمة في حيرة من أمرها حيال هذه السياسات المتعاكسة بين فريق يعمل للنفوذ الإنكليزي، وآخر للنفوذ الفرنسي، وآخر للقضية العربية، وآخر للتركية وآخر لأميركا. وانتشرت الدعايات في عرض البلاد وطولها، وظهرت بوادر انتصار كل حاكم محتل لجزء من أجزاء البلاد لحزبه بكل مظاهر الانتصار، فبينما تجرد السلطة الاحتلالية الفريق المعاكس لسياستها من سلاحه، إذ هي تسلح الفريق الممالىء[1] لها، فأوجدت بهذا التدبير نفرة بين الفريقين، وسرعان أن انقلبت خصومة وشحناء فمصادمات بالسلاح، وفتحت باباً واسعاً لمن لا خلاق لهم، ومن تحينوا الفرصة السانحة لإرواء أطماعهم بالنهب والسلب واستحكام الفوضى، فكثرت العصابات المؤلفة من هنا وهناك من شذاذ الآفاق، وأمعنوا في البلاد ولا سيما العاملية نهباً وسلباً وقتلاً.

وكانت خاتمة المآسي أن خلا الميدان في جبل عامل الجنوبي وفي مرجعيون لفريق من تلك العصابات يحكم في الأعشار والأشبار، وكان ينضم إليهم البدوي والكردي والجركسي، والقوة الحاكمة المحتلة حيال

---

(١) مالأ ممالأة ومِلاء على الأمر: ساعده وعاونه، وتمالأ القوم على الأمر، اجتمعوا وتعاونوا عليه.

هذه الأعمال صامتة ساكتة لا تبدي ولا تعيد، فكان من ذلك أن هوجمت الجديدة وبعض قراها المهاجمة الأولى في كانون الثاني عام ١٩٢٠ م ولكن من أوشاب[1] وأخلاط، وبينهم بعض الشيعيين الذين هم على شاكلتهم.

إن هذه الحادثة حادثة مهاجمة الجديدة وقراها المسيحية، كانت نتيجة التفرقة التي سعى لها المحتل الجاهل بين المسلم والمسيحي، بل وبين المسلم والمسلم والمسيحي والمسيحي، ونتيجة إلقاء حبل الأهلين على الغارب.

وقد تهيب المحتلون أنفسهم العصابات، أو أنه كما تسرب إلى النفوس من الظنون أرادوا إحداث مثل هذه الفوضى، ولكننا لا نحمل ذلك إلا على جهل من قبضوا على ناصية الحال من الاحتلاليين بأمزجة الأهلين وأوضاعهم.

ولا معنى لإسناد ما حدث مثل هذه الحادثة والحادثة التي تلتها إلى التعصب الديني، والمسيحيون ساكنوا مسلمي هذه البلاد من أزمنة متطاولة، ومنهم أقلية سكنوا في قلب بلاد بشارة من جبل عامل منذ عهد الأمير ملحم الشهابي، وجميعهم حمدوا تلك المساكنة. وذود[2] الشيعيين عن المسيحيين في حوادث عام ١٨٦٠ م مما عرفه لهم مؤرخوهم. وكيف كان، فإنا ونحن من سكان هذه النواحي، وقد راقبنا الحوادث عن كثب، فلم نجد بين علل حدوثها أثراً للتعصب الديني، وإنها لم تكن إلا نتيجة لازمة لسوء الإدارة وللسير مع أهواء السياسة، ولإطلاق أيدي الجهلة في إدارة الحكم.

---

(١) الوشب: الغليظ من التمر وغيره، والأوشاب هم أخلاط الناس وأباشهم.

(٢) ذود: حماية ودفاع، يقال: ذاده ذوداً أي دفعه.

كتب بعض فضلاء النصارى اللاجئين إلى النبطية، وهو من سكان الجديدة، بعد حدوث مهاجمة بلده، مقالاً في جريدة لسان الحال أنصف فيها الشيعيين وأثبت بالبرهان أنها كانت من أوشاب بينهم بعض من هو معروف بالشقاوة من الشيعيين. ونشر بعض أدباء الجديدة مقالاً في المقطم العدد (٦٤٢٧) بتاريخ ٦ آذار سنة ١٩٢٠ م وهذا نصه:

«كتب إلينا أديب فاضل يقول: اطلعت على ما كتبه المقطم في حوادث مرجعيون المحزنة، فرأيت أن أرسل إليه بعض ما وقفت عليه من أخبارها، ومن ذلك أن الحكومة المحتلة ملومة جداً لعدم اتخاذها التدابير الاحتياطية اللازمة لمنع الأذى عن قوم أخذت على نفسها حمايتهم، وقبلوا هذه الحماية بطيبة خاطر، فكانت عليهم شراً لم يروا مثله في عصر من عصور الحكم الماضي، يؤيد ما أقول كتاب ورد على بعض أصدقائي هنا من مرجعيون، يستدل منه على أن أهل الجديدة مثلاً كانوا عالمين بعزم العرب على مهاجمة قريتهم، قبل الهجوم بعدة أسابيع، فإن صديقاً تلقى كتاباً من شقيقة له في الجديدة مؤرخاً في ٢٣ نوفمبر قالت فيه ما نصه:

«ويُقال إن العرب سيهجمون على البلدة، وصار الأولاد يخافون كثيراً في الليل خصوصاً عندما يسمعون دوي رصاص البنادق في القرى المجاورة».

وكتبت إليه مثل ذلك بتاريخ ٥ ديسمبر، وكتبت مثله بتاريخ ٢٣ ديسمبر، وزادت حينئذٍ قولها: «ولم ننم الليلة بل بقينا بملابسنا استعداداً للفرار».

وكتبت مثل ذلك بتاريخ ٢ يناير، فإذا كانت الكاتبة، وهي سيدة مقيمة في بيتها، قد علمت وعلم أولادها معها أن هجوم العرب منتظر، فكيف خفي خبر هذا الهجوم على الحكومة المحتلة؟

وروى أحد القادمين من مرجعيون أن خسارة الجديدة من احتلال الجنود الفرنسيين لها بعد خروج العرب لم تكن أقل كثيراً من خسارتها بدخول العرب. وذكر على سبيل المثال أن سيدة أرملة وكريمتيها كن قد فررن من الجديدة مع الذين فروا منها عند هجوم العرب، فلما عدن إليها بعد دخول الفرنسيين، قصدن إلى بيتهن، فألفين فيه جنوداً فرنسيين منعوهن من دخوله، فذهبن إلى قائد القوة الفرنسية واستعطفنه كثيراً حتى سمح لهن بدخول البيت، فلما وصلن إليه رأين الجنود قد حطموا ما بقي فيه من الخزائن، وأخذوا يوقدونها ليصطلوا بها من البرد، وأتلفوا معظم ما فضل فيه من الأثاث بعد هجوم العرب.،

وفي العدد نفسه من المقطم «وجاءتنا كلمة شكر وثناء من أحد الفضلاء على أعيان بلدة النبطية نشرناها في ما يأتي تنويهاً بفضلهم:

«إن النفوس الكبيرة تُعرف في الملمات العظيمة، فقد علمنا من أحد الذين هجروا جديدة مرجعيون إثر حوادثها الأخيرة إلى بلدة النبطية، ما أظهره ذلك البلد الطيب للمهاجرين المذكورين من حسن ضيافة وكرم أخلاق وبسطة كف[1] إلى الإحسان، وخفقان قلوب للإعانة مع كرم عواطف ورأفة ومواساة، مما خفف كثيراً من آلام أولئك المنكوبين، وجعلهم ألسنة تنطق بالثناء وتردد الشكران لأهله من رجال الإنسانية، وقد خص بالذكر حضرات السادة: محمود بك الفضل وأخيه فضل بك، والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر الكاتبين المعروفين، ورئيس بلدية النبطية. فلا عدمت الإنسانية رجالها ولا خسر الفضل أعوانه».

اصطبغت هذه المهاجمة بكثير من الألوان، وألصق كثير من الصحف المسيحية عارها بالشيعيين، وطيّرت أنباؤها إلى باريس، وفي الوقت الذي

(١) بسطة كف: كناية عن الكرم والمبادرة إلى الإحسان.

كان الملك فيصل يقرر مع (المسيو كليمنصو) قضية البلاد والعمل على حلها، فحمل (المسيو كليمنصو) الملك فيصل على العودة إلى سورية، لتسكين الهياج وإخماد ثورة العصابات، وعرض ما اتّفقا عليه من الحلول على رجالات البلاد، وقد نشرت شركة (هافاس) برقية في ذلك الحين هذا نصها:

باريـس:

أبلغ سمو الأمير فيصل الجرائد أنه يسافر إلى سورية ليبلغ الأمة السورية أن فرنسا مستعدة لسماع مطالبها المختصة بالحرية والاستقلال، ولإجابة تلك المطالب. وذكر أن (المسيو كليمنصو) أصغى إلى أقواله، وأظهر له عظيم انعطاف في الأحاديث التي جرت بينهما، ثم أمل أن يصغي إليه السوريون أيضاً بمثل ذاك الشعور، وأن يتوصلوا معه إلى عمل موجب للرضى، وهو ينوي أن يبقى خمسة عشر يوماً في سوريا، إذا كانت الأمة تختاره لإتمام المفاوضات الجارية، لأنه عقد العزم على الإذعان لمشيئتها».

إن الملك فيصلا اهتم جدّ الاهتمام بعد عودته من باريس في حوادث مرجعيون، ولما قابله في بيروت وفد من علماء جبل عامل مؤلف من الشيخ عبدالله الحر والشيخ منير عسيران والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان، وشرح له الشيخ سليمان ظاهر (مؤلف هذا الكتاب) ما حصل في بعض أطراف جبل عامل من القلاقل والفتن، ونفى ما ادّعته بعض الجرائد البيروتية من اعتداء العامليين على المسيحيين، وقال:

«إن العامليين الذين أحسنوا الدفاع عن المسيحيين في حوادث الستين لا يعقل أن يسيئوا إليهم في هذه الآونة».

لما أورد له هذه الجمل وما يماثلها، وذكر مثل هذا الحديث بعض رجال الوفد، أجاب:

«إن المسلم والمسيحي أبناء وطن واحد، وهم في نظري سواء، فإن حصل اعتداء من فريق على الآخر فيجب تأديب المعتدي».

نكبة الجديدة والقرى المسيحية المجاورة لها:

ذكرنا فيما سبق اختلال الإدارة في صور ومرجعيون وما يليهما من الأعمال اختلالاً برهن على أن هناك أصابع خفية أو جلية تتعمده، وكان من الأمر أن خلت نواحي الجنوب من جبل عامل من القوى الحاكمة، ونزيد الآن على ما سبق أن هذه الحال الشاذة تركت المجال الواسع لشذاذ الآفاق من هنا وهناك تسرح وتمرح، بل واستتب لرجال العصابات أن يكونوا هم ولاة البلاد. أضف إلى ذلك ما غرسته السلطة الجاهلة المحتلة من إلقاء بذور الخلاف بين الأهلين مسيحييهم ومسلميهم، بل بين جماعات الفريقين، وتسليحها للجماعات المسيحية حيث تجرد الجماعات الإسلامية من أسلحتها.

حيال تلك الفوضى السائدة، ورسوخ عقيدة في نفوس بعض الضعفاء من المسيحيين أن الحكم أصبح لهم. وكان من جراء هذه السياسة الملتوية يبدر[1] من بعضهم كلمات تجرح عواطف المسلمين، وهي تمس جوهر دينهم، ومثل هذه الأقوال بعض أفاعيل يثور لها ثائر المسلم.

فقد تجرأ رجل مسيحي من أهل قرية برعشيت ـ والسكان المسيحيون فيها أقلية ضئيلة عاشوا مع المسلمين قبل الاحتلال عيشة وئام وسلام ـ أن يحمله جهله على تسمية كلب له باسم فيصل، وكلبتين باسم فاطمة وخديجة، وأن يرفع في الجديدة العلم الفرنسي على منارة مسجد المسلمين، بطريق الإكراه والجبر، احتفاء بمقدم (الجنرال غورو) مفوضاً

---

(١) بدر: أي ظهر.

سامياً على لبنان، ووقوع حوادث مثل ذلك في القرى المسيحية في قلب جبل عامل، وبين القرى الإسلامية الكثيرة كعينبل وأقرط ودبل ودردغاي، وفي صور وصيدا، وهكذا في كل بلد إسلامي ساكن فيه أهله المسيحي. وقامت سوق الاعتداءات والوشايات إلى المحتلين، ويكاد يحمل على هذه الدعايات الضارة كل ما مُني به الوطنيون من تنابذ وتشاحن[١] وثورات.

أما الشواهد على تعمد المحتلين للسير بهذه السياسة الهوجاء، وتأثر ضعفاء الأمة بها، وعملهم على فتح هوة التفريق بين جماعات طوائفها بشتى الأساليب فهي كثيرة، وما كنا لنخوض في أمرها لولا صلتها التاريخية بأسباب بعض الحوادث التي اجتنى ثمراتها المرة أبناء البلاد كافة.

احتلت قوى الحلفاء البلاد السورية، واقتُسمت بينهم إلى مناطق، فكانت فلسطين منطقة للحكم البريطاني، ولبنان وسواحله منطقة للحكم الفرنسي، وسورية وما إليها منطقة للحكم العربي، والسلطة العامة العسكرية على هذه المناطق وضعت تحت تصرف البريطانيين.

كان هذا الوضع بداية التنافس بين ولاة المناطق على النفوذ، لا في منطقة كل والٍ على ولايته فحسب، بل عليها وعلى المنطقتين الأخريين.

جرى هذا التقسيم الإداري في الظاهر بعد أن أعلنت البلاد الحكم العربي، وقبل غشيان[٢] جيش الاحتلال المختلط لها، وبعد أن فر منها الأتراك.

مُثّل هذا الدور، ومداد قطع المواثيق والعهود لجلالة المرحوم الملك حسين بوحدة البلاد العربية لمّا يجف.

ظهرت هذه البادرة الاحتلالية بعد اطمئنان نفوس أبناء الأمة كافة إلى

---

(١) تنابذ وتشاحن: أي تبادل الإتهامات، وحمل الضغائن والعداوات.

(٢) غشيان: غشي غشاوة: أي غطى غطاءً، والغشيان هنا بمعنى تغطية جيش الإحتلال للأرض كناية عن كثرة الجيش.

إعلان الحكم العربي، ومقابلتها للحكم العربي بكثير من الارتياح، دل عليه مظاهرات اللبنانيين يوم أسند المرحوم شكري بك الأيوبي حكم لبنان إلى حبيب باشا السعد باسم الملك حسين، ومظاهرات جزين والجديدة وبيروت وكل بلد من البلدان السورية واللبنانية والفلسطينية.

لم يظهر الاحتلاليون بهذا المظهر من التقسيم حتى اتخذت الدعايات شكلاً غريباً، وسرعان ما أخذت عوامل تنفير الوطني من أخيه تستحكم في النفوس، وكانت أظهر أثراً في المنطقة العربية المحتلة من الفرنسيين من المنطقتين الأخريين، التي ولي سلطانها حكام عسكريون متشبعون بالروح الاستعمارية، فخلقوا الأساليب المختلفة لبسط نفوذهم الاستعماري، ولما رأوا أن العربي المسلم ينفر من الاستعمار، ولا يشاء الاعتراف بسلطان المستعمر عليه، ولّوا وجوههم شطر خدعة الضعفاء من المسيحيين والمسلمين، المسيحي بتخويفه بسلطان بدو الحجاز المتوحشين بزعمهم، وسلطان المسلم، والمسلم بتقريبه إليهم من طريق الأطماع بالوظيفة والمال.

وما أسرع أن فتحت هذه الدعاية هوة عميقة بين الضعفاء من الفريقين، ومن دواعيها الملموسة أنهم كانوا يظهرون إيثار المسيحي على المسلم، وإنهم إنما احتلوا البلاد من أجل حمايته من المسلم. وهكذا أخذوا بهذه السياسة التي تناستها البلاد حقبة من الزمن، يثيرون دفائنها. فكان منها أن تنكر الكثير من المسيحيين ولا سيما سكان القرى والدساكر[1] لإخوانهم المسلمين، وكان لهذا التنكر أثره السيىء في كل ما حدث في المنطقة العربية من أمور كان يأبى حدوثها عقلاء المسلمين والمسيحيين، ولكن ما الحيلة وقد خرج الأمرمن يدهم وأصبح الشأن للغوغاء والدهماء[2]!!!...

---

(١) الدساكر: جمع دسكر، وهي كلمة فارسية معناها القرية العظيمة.

(٢) الغوغاء والدهماء: الناس الفوضويون الذين لا تحكم تصرفاتهم القواعد الإجتماعية والأصول التربوية.

إن سياسة التفرقة لم يمارسها الاحتلالي مع الطائفتين المسيحية والإسلامية فحسب، بل مع أبناء كل طائفة الذين اتخذ منهم شعوباً وعناصر ترويجاً لتلك السياسة، واذكر من ذلك حديثين جرى أولهما مع الأستاذين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وحاكم صيدا العسكري القومندان (شاربنتيه) في النبطية، وقد قدم للتحقيق معهما عن سعايات قدمت إليه بهما، وبعد نفيهما تلك الإشاعات ومجاهرتهما له بعملهما في سبيل القضية العربية عملاً شريفاً مجرداً عن الإساءة إلى أحد من أبناء الوطن، وانجر الحديث ـ والحديث شجون ـ إلى الخلافة الإسلامية وخلافة الملك حسين، فقال: «إنكم من الشيعة فكيف ترضون خلافة السني، وليس قبول خلافة السني من أصول مذهبكم»؟؟؟...

فأجاباه بأنه لا فرق بين السني والشيعي وكلاهما مسلم.

والحديث الثاني جرى مع الشيخ سليمان ظاهر وبعض الصحفيين في بيروت، وهو من المسيحيين الذين كانوا يعملون لسياسة الاحتلال، وهو لا يخرج عن موضوع الحديث الأول.

واجتهد الاحتلاليون الاستعماريون في تأجيج نار العداوة بين المسلمين الشيعيين والسنيين، فلم يفلحوا، ولكن سياستهم أفلحت في إيقاد جذوتها بين بعض المسيحيين والمسلمين. وكان منها أن أُخذ بعض سكان القرى من الذين لا يتحرجون عن التفوه ببعض الكلام الجارح لعواطف الآخرين.

ففي قرية برعشيت المسلمة الشيعية والمجاورة للقرى الشيعية يسكن أقلية ضئيلة مسيحية لم تذمم[1] قط مساكنة الشيعيين، تجرأ مسيحي أن يسمي كلباً له باسم فيصل وكلبتين باسم خديجة وفاطمة (وقد مر ذكر ذلك

(١) تذمم: بمعنى تستنكر.

سابقاً)، وفي قرى عينبل ودبل ورميش وقوزح وأقرط المسيحية المحاطة بالقرى الشيعية تكررت حادثات لا تخرج عن ذلك الروي وتلك القافية.

وفي صور شرطي مسيحي سب دين الإسلام ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وابنته الزهراء عليها السلام، وكادت تنشب فيها من جراء ذلك ثورة دينية لولا تلافي عقلاء المسلمين شرها.

وفي صيدا، في يوم الجمعة ٢٤ كانون الثاني عام ١٩١٩ م، حدث من مستقبلي القرى المسيحية المجاورة لصيدا لدى استقبال قائد فرقة المتطوعين اللبنانيين الشمالية (ريكوراه) الذين دعاهم لحضور حفلة الاستقبال بعض وجهاء مسيحيي صيدا ـ وقد تحقق عدم دخول مسلميها في هذا الاحتفال ـ أمور تثير كلها ثائر المسلمين، ومنها ما كان يهزج به أهل تلك القرى وهم رافعو الأعلام الفرنسية والصلبان:

دين المسيح الدين الصحيح والحكم لفرنسا صريح

وجرى للنفر القليل من المسلمين الذين حضروا الاحتفال، من جرح العواطف الدينية، والتعرض لهم بكل إساءة من المحتفلين ورجال الدرك والشرطة، ومن التف إليهم من المتطوعة والجنود الفرنسيين، ما كادت تصبح به صيدا ساحة حرب، لو لم يتدارك العقلاء الخطر بإقصاء المسلمين عن أمكنة اجتماع الجماهير المحتشدة من البوابة الفوقا إلى دار الحكومة.

وانجلت المعركة عن حادثتين: إصابة المجاهد الوطني السيد نسيب شهاب بطعنة في وجهه شطرت أنفه، وإصابة محمود العكاوي بضربة حربة تلقاها بكفه فحطمها بعد أن قطعت له إصبعاً.

وجرى في الجديدة قاعدة حكومة مرجعيون حادث أقام مسلميها القلائل وأقعدهم، وهو أن حاكمها العسكري أراد الاحتفال فيها بقدوم (الجنرال

غورو) مفوضاً سامياً إلى بيروت، وأمر برفع الأعلام الفرنسية في الدور والحوانيت والمعابد، وحسّن إليه فريق أن يرفع العلم الفرنسي على منارة المسجد، فعارضت الأقلية المسلمة ذلك، وقدمت احتجاجها على هذا العمل الذي رأته مهيناً لكرامة معبدها. ولكن الاحتجاج ذهب بدون جدوى، وذهب بعض الجند الفرنسيين مع بعض الأهلين المسلمين غير العابئين بمس شعورها الديني، ونصبوا العلم على منارة المسجد بطريق الإكراه.

وفي عينبل جرت أحداث مطبوعة بطابع تعصب المسيحي على المسلم لم يكن معروفاً من قبل، وسكان هذه القرية المسيحية وقرى رميش وقوزح وأقرط ودردغيا المسيحية كانوا مع مسلمي تلك الجهات على أتم الوئام، فكان بعض جهلة عينبل الذين سلحتهم السلطة المحتلة، يسيئون إلى مجاوريهم من المسلمين.

ومن أعظم الإساءات التي ارتكبوها نصبهم تمثالاً أطلقوا عليه اسم محمد (ص) واستهدفوه لرصاصهم.

وتعرضوا للسابلة[1] التي تمر بضاحية قريتهم بالإهانة والشتائم، وأدّت الحال ببعض نواطير هذه القرية إلى الهجوم على نسوة كن يغسلن الثياب على عين ماء قريبة من القرية وهن عاريات، فذعرن من هذا الهجوم الذي لم يعرفن له مثيلاً قط، ولا سبق أن أسيىء إلى أمثالهن مثل هذه الإساءة.

وبلغ من استخفافهم بمجاوريهم المسلمين أن أطلق بعضهم النار على رجل أشيب فأرداه قتيلاً، وادعى أنه ظنه ثعلباً، فكأن السلاح الذي سلحتهم به السلطة الاحتلالية لم يكن لها من غرض ترمي إليه فيه إلا خلق أسباب إثارة النفوس المسلمة المطمئنة وإحداث ما حدث.

---

(١) السابلة: أبناء السبيل، أي الذين يمرون في الطريق.

وهكذا استمرت الحال على هذا المنوال من خلق العداوات بين الوطنيين، ومن تسليح فريق وتجريد آخر، ومن تفضيل فريق على فريق، مضافاً إلى إخلاء قضاءين من الحكام، وهما صور ومرجعيون، اللهم إلا مركزهما، ولا يكاد ينفذ لهما حكم في الداخل.

وكان لهذه التدابير الاستعمارية، إلى سياسة إلحاق هذه البلاد بجبل لبنان، وبث الدعاة والسماسرة، إلى ترويج هذه الفكرة، مضافاً إلى ما كان يجري من أعمال الجند الاحتلالي الشاذة أثراً بالغاً في فتح باب واسع للفوضى واستفحال أمر العصابات الطامحة إلى السلب والنهب من مختلف الطوائف، وفي تباعد الشقة بين الوطنيين المسلمين والمسيحيين، وبين الكثير من طبقاتهم، وبينهم وبين السلطة الاحتلالية، دع وقوع البلاد في مختلف مهاب العاصفات السياسية ودعاياتها بين عربية وفرنسية وإنكليزية. كان لذلك كله أثر مباشر في حصول الفتن في البلاد، وانتشار حوادث العدوان وتعاظم البلوى، وإثارة حفائظ عرب الجولان والحولة على مجاوريهم المسيحيين في مرجعيون، وبعض العصابات الإسلامية الشيعية البشارية[1] وغيرها على القرى المسيحية عينبل ورميش واقرط وقوزح ودردغيا، وإهمال السلطة القابضة على زمام الحكم العسكري التدابير للحؤول دون الانتقام الذي امتلأت منه الصدور، أنى وهي التي خلقت له أسبابه ومهدت له سبله، فكانت نكبة مرجعيون الأولى، وما هي إلا من صنع السلطة، ومن مؤججي نارها من بعض ملاكي الجديدة والقليعة في الحولة وشركاء بعض أهلها العرب في الدوارة والزوق التحتاني والمنشية.

أحد أسباب هذه النكبة:

جرت عادة بعض عرب الفضل المخيمين في الجولان، أن يهبطوا في

---

(١) البشارية: أي من بلاد بشارة.

موسم قطاف الذرة في كل عام إلى الحولة، لالتقاط فضلات المتروك بعد القطاف، وعلى مجرى العادة، قدم القرى الآنفة الذكر نحو ستين رجلاً وامرأة من عرب الفضل، وهي القرى التي يشارك فيها أهلها بعض وجهاء الجديدة والقليعة، وذلك في تشرين الأول عام ١٩١٩ م، فعارضتهم القوة المؤلفة من سبعة أنفار من الدرك المرابطة في مخفر القبطية، وحاولت منعهم بالقوة من قطف المتخلف من الذرة، فاصطدموا بالقوة وتغلبوا على خمسة أنفار منها وجرَّدوهم من أسلحتهم وأوثقوهم كتافاً.

وكان في ذلك الحين في المنشية نعمان بركات، فأسرع إلى الجديدة وصوّر لحاكمها العسكري الفرنسي هذا الحادث البسيط بصورة هجوم كبير من عرب الجولان، يُراد منه اجتياح القرى المسيحية المرجعيونية.

وهذا أسرع بدوره إلى مفاوضة السلطات العسكرية في صيدا وبيروت، وامتدت المخابرات البرقية بينه وبين مراجعه إلى منتصف الليل، وأخذت الفصائل العسكرية والجندرمة تتوافد من هنا وهناك إلى مدة خمسة أيام، وذهبت إلى الحولة بعددها وعُدُدها وسيارتها ومدافعها ورشاشاتها، وحومت الطائرات في سماء الحولة، حتى خيل أنها أصبحت ميداناً حربياً.

وكذلك كانت الحال، فإن الخبر اتصل بأمير عرب الفضل الأمير محمود الفاعور وبمشايخ الحولة، فجمعوا رجالهم لمقاومة تلك القوى الهائلة.

واحتدمت المعركة، فانجلت عن انكسار القوى الفرنسية، وتراجعت إلى المطلة، ولحقت بها قوى العرب، ثم أخلت المطلة وتراجعت بانتظام إلى الجديدة، واتخذتها قاعدة حربية، وحملت من يستطيع من أهلها التسلح على حمل السلاح، وتبعتها جموع العرب ومن انضم إليها من العصابات، وهاجمت تلك الجموع الجديدة، فكانت تلك الكارثة التي أصيب بها هذا البلد الذي التجأ أهلوه إلى بعض القرى الإسلامية المجاورة وإلى النبطية.

وانجلى الحادث عن قتلى منهم، وعن إحراق بعض الدور، وقد أخلتها القوى الفرنسية فراراً من قوات العرب. ونال القرى المسيحية الأخرى كالقليعة والخربة ودير ميماس وصردا ما نال الجديدة. وخيمت تلك الجموع أياماً في الجديدة التي خلت من الحامية ومن السكان، وأصبحت نهباً مقسماً بين الناهبين من شذاذ الآفاق، ونال السوء موظفيها الوطنيين الذين فروا إلى النبطية مشياً على الأقدام.

وبعد أن استرجع الفرنسيون قواهم وعزّزوها بالرجال والذخائر، عادوا إلى الجديدة بعد أن أخلتها جموع العرب.

وهناك لعبت أهواء بعض المسيحيين دورها، وعملوا على إلصاق تهمة وقوع هذه الكارثة بسكان القرى المسلمة الشيعية المجاورة وبزعيمها كامل بك الأسعد وبزعيم الحولة كامل حسين اليوسف. ونال هذه القرى قسطها من تأديب السلطة، وصوبت نيرانها على قرية الخالصة وعلى دار الأمير محمود بالخصوص فكانت طعماً للنار.

ولم يهلّ مطلع العام العشرين بعد الألف والتسعمائة إلا على معاودة عرب الفضل والحولة ومن انضم إليهم من العصابات الشيعية وغير الشيعية الاصطدام بالقوى الفرنسية ومن انضم إليها، وهي التي اتخذت الجديدة وما إليها ميداناً حربياً، فكانت نكبة الجديدة الثانية، وفرار من اطمأن إلى إقرار الأمن إلى نصابه إلى النبطية وصيدا وبيروت.

ونال في المرة الثانية الشيعيون قسطهم من الانتقام ولم يسلم كامل بك من شر هذا الانتقام في هذه المرة، حيث انتهبت داره الفخمة التي أخلاها وفر منها إلى دمشق.

لم يشأ الكثيرون من بعض الزعماء المسيحيين وصحفييهم وكتبتهم، أن يحكموا فيما كانوا يلصقونه بالشيعيين من التهم وسوء الظنة، العقل

والمنطق، وكادوا يحصرون ويلات النكبتين للجديدة وجوارها بهم، متناسين عن تحكيم تلك الأسباب المعقولة التي بسطناها آنفاً بكل وضوح. ولكن المنصفين منهم ومن خدموا الحقيقة والتاريخ، لم يفضلوا ذلك، فاستحقوا الثناء. وقد تقدم في تضاعيف البحث عن هذه الأحداث ما كتب في المقطم ونقلناه بحرفه.

المناداة بملكية الملك فيصل:

حيال هذه الحوادث التي منيت بها هذه البلاد، وفي وسط هذا الاضطراب الذي شمل المنطقة العربية المحتلة، وفي هذا الجو المظلم، أقر المؤتمر السوري المؤلف من رجالات سوريا ولبنان وفلسطين في جلسته التاريخية في ٦ آذار عام ١٩٢٠ م، المناداة بملكية الملك فيصل على سوريا المتحدة، وقد دُعي إلى هذا المؤتمر بعض الزعماء العامليين، ولكن السلطة المحتلة حالت دونهم ودون حضور جلساته.

إن المناداة بملكية الملك فيصل لم ترق للفرنسيين، فكان في ذلك رواج سوق الدعايات من هنا وهناك، وكانت المفاوضات من قبل بعض أعيان وادي التيم والعرقوب والجولان من سوريا وغيرهم مع كامل بك في تقرير مصير جبل عامل، وفيما يجب عمله بالاتفاق مع السوريين، فتقرر بالاتفاق مع كامل بك الأسعد والوفود التي كانت تراجعه المرة بعد المرة، أن يعقد كامل بك مؤتمراً عاملياً يضم علماء جبل عامل وأعيانه ووجهاءه، وذوي الرأي فيه لتقرير المصير أولاً، ولوضع حد لتعدي العصابات الشامل الذي تألم منه المسلم الشيعي قبل المسيحي ثانياً، ولوقاية إخوانهم المسيحيين من شر الاعتداء ثالثاً.

وكان قد عقد اجتماع قرب قرية دير ميماس على مسافة ساعة ونصف الساعة من الجديدة، حضره (شاربنتيه) مستشار متصرف لواء صيدا العسكري

إذ ذاك، وكامل بك الأسعد، وبعض الزعماء العامليين، لمواجهة الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد، وذلك في ١٥ نيسان عام ١٩٢٠ م، وقررت أموراً، وذلك بعد أن استشار كامل بك الأسعد العلماء والمفكرين في تقريرها.

ولكن (شاربنتيه) لم يوافق على المهم منها، فكان انعقاد مؤتمر عاملي بعد هذا الانقلاب الخطير، وبعد المناداة بملكية الملك فيصل، وبعد هذه الحال المؤلمة مما لا مندوحة منه، فوُجهت دعوة عامة عُين لها الزمان والمكان في الحجير في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠ م.

مؤتمر الحجير:

موقع الحجير في واد بين جبلين، فيه مسيل ماء، وهو على بعد ثلاث ساعات من الجديدة غرباً. وفي اليوم الموعود اجتمع زهاء ستمائة شخص، فيهم جل علماء البلاد وأعيانها ومفكريها من أقضية صور وصيدا ومرجعيون، ودعي إليه رجال الثورة كأدهم الخنجر، وصادق حمزة وأتباعهما، وكانت دعوتهم لحضور هذا الاجتماع منحصرة في أخذ العهود عليهم بأن لا يتعرضوا لإخوانهم الوطنيين مسلمهم ومسيحيهم بسوء.

وبعد جلسات متعددة ضمت صفوة المفكرين، قررت الأمور التالية:

الأول: تنظيم لائحة بالمصادقة على جميع مقررات المؤتمر السوري الأخيرة، والاحتجاج على كل ما يعاكسها.

الثاني: انتداب وفد من العلماء يحمل إلى العاصمة السورية أماني العامليين ومقررات مؤتمرهم هذا، والذين انتخبوا وفداً هم العلماء الأعلام السيد محسن الأمين والسيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين، على أن يرفعوا للمقام العالي الهاشمي.

أولاً: المصادقة على مقررات المؤتمر السوري بعاصمته دمشق، بإعلان الاستقلال التام الناجز لسوريا بحدودها الطبيعية والجغرافية وملكية الملك فيصل المعظم.

ثانياً: عواطف الإخلاص والتبريك لمقام جلالة الملك فيصل الأول ملك سوريا وجميل طاعة العامليين.

ثالثاً: اعتبار مقاطعة جبل عامل مستقلة استقلالاً إدارياً داخلياً مرتبطاً بالاتحاد السوري.

رابعاً: تفويض العامليين لهم تفويضاً مطلقاً بتقرير كل ما يعود على جبلهم بالنفع.

وبعد توقيع اللائحتين: لائحة المصادقة على مقررات المؤتمر السوري، ولائحة انتداب الوفد، أخذ العهد على الأعيان والوجهاء ورؤساء الثائرين ومختاري القرى، بالمحافظة على الأمن والمدافعة عن عامة المواطنين على اختلاف الأديان والملل، والمدافعة إلى النهاية عن الاستقلال العربي.

هذا هو مؤتمر الحجير، وهذه هي الغاية الحقيقية من انعقاده، ولم نعلم كيف استحل مؤرخ منصف عربي صميم وهو الأديب الكبير الأستاذ أمين الريحاني فيلسوف الفريكة اللبناني، أن يندفع لتشويه وجه الحقيقة، فيكتب بتاريخ ملوك العرب لرواية راوٍ متغرّض من الجديدة، أن مؤتمر الحجير عُقد لأجل ذبح مسيحيي (عينبل)، وأن أحد العلماء العامليين ضرب استخارة لهذا الغرض، فوافقت على ارتكاب هذه المذبحة.

ومن العجيب أن يسجل مثل هذه الأسطورة أو هذا الخبر المختلق في كتاب يقرأه الألوف بل الملايين من الناس وهو إن لم ينصف الشيعيين في

نقل هذه الخرافة في كتابه، فقد أنصفهم في بحث أسباب حوادث مرجعيون، وفي التألم لما أصابهم من نكبات حملة الكولونيل (نياجر) بعد وقوع نكبة عينبل، وأهمها تلك الغرامة الضخمة.

إن الثائرين الذين حضروا مؤتمر الحجير لم يكونوا بين مرتكبي جريمة عينبل، وإننا كنا فيمن حضر هذا المؤتمر، وفي الحق إن تقرير دفع التعدي عن المسيحيين والاهتمام به كان من أهم أغراض ذلك المؤتمر الذي نشرت مقرراته جريدة الدفاع في العدد ٩٥ بتاريخ ٤ أيار سنة ١٩٢٠ م.

نكبة عينبل:

عينبل قرية كبيرة من قرى المسيحيين في جنوبي جبل عامل، على مسافة ساعة ونصف الساعة من قرية بنت جبيل، ومثل ذلك عن قرى كونين وعيناثا وعيثا الزوط ومارون وغيرها من القرى الشيعية، يبلغ عدد سكانها زهاء الألف أكثرهم من الطائفة المارونية، وعلى مقربة منها قرى دبل ورميش وأقرط وقوزح القرى المسيحية.

انتقل آباؤهم من لبنان الشمالي في عهد إمارة الأمير منصور الشهابي لأسباب عديدة، وأكرم مثواهم مشايخ جبل عامل في ذلك العهد الإقطاعي، وأحسن الشيعيون جوارهم. وكان يحدث بينهم وبين بعض القرى المجاورة كبنت جبيل بعض حوادث لا تخرج عن العادة، فكانت تُتلافي بالحكمة، وهكذا استمرت الحال إلى عهد الاحتلال الذي شاء أن يكدر بينهم وبين إخوانهم الصفاء، عملاً بسياسة التفريق، فكان له ما أراد كما سبق بيان ذلك مما لا نعود إلى تكراره.

سلّح الاحتلاليون هذه القرية والقرى المسيحية الأخرى التي ذكرناها، بعد أن غرس النفرة في نفوسهم من إخوانهم المسلمين، مما كان من أثره الذميم ما ألمحنا إليه، ومنه حادث قتل ذلك الشيخ من قرية دير نطار.

واجتهد عقلاء الشيعيين وبعض عقلاء تلك القرية لملافاة أثر قتل ذلك الرجل من النفوس والمصالحة على دفع ديته، وكان ذلك في الوقت الذي خلت منه البلاد من القوة الحاكمة، وفي زمن استفحال أمر العصابات. وكان موعد الاجتماع لصرف المشكل بين وجهاء عينبل وبعض وجهاء بنت جبيل وكونين بعد اجتماع الحجير بأسبوع.

وشاء القدر أن يضم الاجتماع فريقاً من رجال الثورة الشيعيين الذين لم يحضروا اجتماع الحجير.

ومن الصدف أن كامل بك الأسعد في ذلك الحين كان قد دعاه الكولونيل (نياجر) لمقابلته في النبطية، وكان قد أنذره كامل بك بأن بقاءه في بلده مما تقضي به حال الخلاف المستحكم بين أهالي عينبل وبعض أبناء طائفته، فلم يصغ إلى إنذاره، وألح عليه بالحضور.

فكان من جراء ذلك أن لم يحضر كامل بك ذلك الاجتماع الخطير، وأن لم يصغ أهل عينبل لتسوية ذلك الخلاف، ولم يعبأوا بأمر الاجتماع والمجتمعين، واستعدوا بما يملكونه من آلات الدفاع والسلاح وبما جمعوه من إخوانهم من القرى المجاورة لهم، للمقاومة.

فثار ثائر بضعة نفر من رجال الثورة الذين حضروا الاجتماع، وذهبوا لمهاجمة القرية بعددهم القليل، ولم يجدهم شيئاً نصح الناصحين لهم بالإقلاع، بل إن أحدهم محمود بزة صوب بندقيته إلى الحاج محمد سعيد بزة وأخيه عبد الحميد، مهدداً إياهما ومن يحول دون إنفاذ خطته وخطة إخوانه بالقتل، وهما لا يستطيعان لهم رداً بالقوة. فكان أن نفذت تلك الخطة، واستطاع أولئك الرجال القليلون أن يقاوموا ما لا يقل عن سبعمائة رجل مسلح من قرية عينبل، وأن يظفروا بهم وأن يمعنوا في القتل وسفك الدماء، ولم يعفوا عن الشيخ ولا عن بعض النساء، حتى بلغ عدد القتلى زهاء المائة، ولم يقتل منهم سوى رجل واحد.

وفرّ من سلم من القتل إلى القرى المجاورة وإلى صور حتى خلت القرية من سكانها، وامتدت إليها الأيدي من هنا وهناك، ومن اعراب الشعب ومن شذاذ الآفاق بالنهب، وأحرق كثير من دورها.

وهكذا وقعت هذه الحادثة التي لم يكن سببها الشيعيون ولا كان لزعيم أو وجيه من زعمائها ووجهائها يد فيها قط، ولا كانت العصابات كلها التي التهمت الأخضر واليابس في البلاد من أهل البلاد، بل كانت مزيجاً من شتى الطوائف والعناصر.

هذه هي نكبة عينبل، وهذه هي أسبابها الحقيقية، ولكن السلطة الاحتلالية وسكان القرى المسيحية وبعض من لم يبحثوا في الأسباب التي سببت هذه الحادثة، أبوا إلا أن يلصقوا أسبابها وعواملها بالشيعيين كافة. فكان من الضجة الهائلة التي ارتفعت بالاستياء من الشيعة، وبوجوب الانتقام منهم، أن أناطت حكومة الاحتلال العسكرية بالكولونيل (نياجر) أمر تنظيم حملة لتأديب القرى الشيعية التي اتهمت بالهجوم على قرية عينبل أو بنهب بيوتها.

حملة (نياجر) على جبل عامل:

في الحق أن جبل عامل لم يكن ثائراً على المسيحيين، وما كان إلا كإخوانه العرب من فلسطين وسورية يعمل مع العاملين على الاستقلال العربي. بسطنا تمام البسط الأسباب التي كانت حادثة عينبل وغيرها من الحوادث نتيجة لازمة لها، وما كانت الثورات التي نشبت في مرجعيون عدة مرات وفي غيرها ضد المسيحيين، ولا كان السلب والنهب موجهاً للفريق المسيحي دون الفريق المسلم، ولا كان جبل عامل كله ثائراً ثورة حربية، بل كان كغيره من بلاد الشام وبلاد العرب يطلب استقلالاً عربياً عن طريقي الإقناع والمنطق. وما كان المنضمون منه إلى ثائري العرب بتحريض من

الزعماء العامليين، ولو كانت لهم يد في ذلك لكان لتلك الثورات شأن غير شأن، ولسارت على نظام قد لا يهون على القوى الفرنسية أن تنال من ذلك الجبل الأشم ومن رجاله الأشداء نيلاً، ولكن القوى الفرنسية تجاهلت ذلك كله، وعجزت عن خضد شوكة القوى الغريبة عن جبل عامل، وحصرت أعمالها فيه وهو بين ذراعي وجبهة الأسد.

تناست القوى الفرنسية وقائع الحولة ومرجعيون وهي قائمة على جموع عرب الجولان والحولة والعرقوب ووادي التيم، وما كان في غمار تلك الجموع إلا العدد الضئيل من ثوار العامليين، فاتخذت من نكبة عينبل، التي لم تكن إلا من صنع رهط عاملي شذ عن رؤسائه وعن إرادة الوازع والنصيح، ذريعة لصب جام غضبها على العامليين كافة. وتفننت في إيصال الأذى إليهم بشتى الأساليب، وعقدت لواء حملتها على القسم الجنوبي من جبل عامل على الكولونيل (نياجر) بعد أن استكشفت الطائرات أياماً متوالية حالة ذلك القسم وما عسى أن يكون فيه من القوى، فلم تر ما يقف في وجهها، لأن البلاد لم تكن على استعداد للمصادمة والمقاومة، وكان من نتائج هذا الاستكشاف الذي انتهى بتدمير بعض البيوت بقذائف تلك الطائرات في بنت جبيل، ومن أنباء الحملة المزمعة على إنفاذ خطة الانتقام، أن فر أهل القرى الموجهة إليهم تهم أهل عينبل بالاشتراك في نكبتها.

أما الحملة فكان عدد رجالها ٣٦٠٠ عسكري بينهم عدد كبير من المتطوعين المسيحيين.

مشى النصف منها تحت قيادة الكولونيل (نياجر) من صور يوم الأربعاء في ١٨ أيار، وكان قد وصلها على ظهر دارعة يوم الثلاثاء. وبوصوله أعدم ستة أشخاص من قرى مختلفة لم تشترك في حادثة عينبل، ولكن بعض أهلها زعم أن لهم يداً فيها.

وفي اليوم الذي مشى فيه القسم الأول من الحملة من صور، وقبل توجه القسم الثاني المرابط في النبطية، استدعى الليوتنان (توليه) الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، وأبلغهما وجوب مبارحتهما النبطية إلى صيدا لمقابلة المستشار العسكري القومندان (شاربنتيه)، ولم يسمح لهما بمواجهة أحد من أهل بلدهما، وأعلمهما بانتظار سيارة لهما على الطريق تقلهما إلى صيدا.

ولما دخلا على (شاربنتيه) قال لهما: «إنني استدعيتكما لاقتضاء مصلحة الحملة العسكرية عدم وجودكما في بلدكما، ولتقيما هنا شرط عدم التدخل بالسياسة وعدم حضور أي اجتماع كان، حتى تنتهي الحملة من أعمالها[١]».

وقد اصطحب الكولونيل معه متصرف لواء صيدا رشيد بك جنبلاط والحاج إسماعيل خليل والحاج أحمد أبو عرب من صور ونور رزق الله مفتش الزراعة وهو من قرية عينبل.

مرت الحملة بقرية البازورية، فهدمت بعض بيوتها، لأن منها ثائراً يسمى يعقوب القرعونة، ثم مرت بقرية جويا، فاستقبلها أهلها بالتسليم، ولكن وشاية كاذبة ألصقت بالسيد يوسف طاهر قضت عليه بإنفاذ حكم الموت فيه بصورة فظيعة.

وفي يوم الخميس في ١٩ أيار مشت الحملة متجهة إلى تبنين لتلتقي حملة النبطية بقيادة (الليوتنان توليه) التي مشت في هذا اليوم، فترصد طريق حملة صور في مرتفعات الوادي المسمى بوادي الحريق قوة من الثوار يبلغ

---

(١) يبدو أن إبعاد العلماء من الساحة العاملية لم يكن حباً بالحفاظ عليهم بقدر ما كان خوفاً من إمكانياتهم في تحريض الناس وحثهم على المواجهة وهذا يظهر من خلال اصحاب الكولونيل معه العديد من الشخصيات النافذة.

عددها المائتين بقيادة محمود الأحمد بزة بطل نكبة عينبل، فاصطدمت بالحملة، وكانت موقعة حامية الوطيس ضعضعت الحملة وألحقت بها خسائر في النفوس، ولولا نفاذ رصاص رجال الثورة وانقطاع المدد عنهم لما استطاعت الحملة الفرنسية اجتياز تلك المضايق. وقد أُخّر سيرها زهاء أربع ساعات، وتوقفت عن المسير إلى أن بلغها من بعض الأهلين نفاذ ذخيرة الثوار وانسحابهم من المعركة استعداداً لاستجماع قواهم والحصول على الذخائر.

ولذلك استتب للحملة الفرنسية متابعة سيرها إلى تبنين، فاستقبلت من مسلميها ومسيحييها بالتسليم والطاعة. وهناك فرقت بعض فصائلها على قرى باريش وأرزون وشحور ودبعال، فهدمت من الأولى بعض البيوت، ودمرت الثانية، ومن شحور بيتاً واحداً، بعد أن أطلقت النار على العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين الذي ألصقت به تهمة إثارة الثوار على عينبل زوراً وبهتاناً، وقد نجا بأعجوبة.

وغادرت الحملة هذه القرية بعد أن اعتقلت عشرة رجال منها، وحملتهم ما جمعته من سلاح، وهددت القرية بالتدمير، وموسمها بالحرق، إذا لم يستسلم السيد عبد الحسين المشار إليه للسلطة.

أما حملة النبطية فقد ذهبت عن طريق جسر القاقعية يوم الخميس في ١٩ أيار تحت حماية المدفعية، وكانت قد عبرت الطريق من النبطية الفوقا إلى قرية زوطر، في أرفع هضبة في شاطىء الليطاني الشمالي، تطل على أرفع هضاب الشاطىء الجنوبي. ولما استأمنت طريقها، هبطت الوادي واتجهت إلى مرتفعات وادي الحجير غرباً، فصعدت هضبة قرية فرون بعد أن تقدمتها طليعة من الدرك لاستكشاف طريقها.

وكان صادق الحمزة على عشرين من رجاله، كامناً في وادي الحجير، ولم يشأ مقاومة الحملة إلا بعد استشارة كامل بك. وكان قد بعث إليه

ببعض رجاله، فأبى عليه المقاومة كل الإباء ونصحه بعدم التعرض للحملة الفرنسية. وكان كامل بك قد ردّ ما ورد عليه من الذخائر والأعتاد الحربية مما يبلغ محمولها حمل ثلاثين بغلاً لتوزع على الثائرين. ولذلك لم تلاق هذه الحملة مقاومة قط، فبلغت قرية فرون آمنة، ولكن المتطوعين اعتدوا على بعض البيوت بالنهب. وهكذا جرى في قرية الغندورية.

وكان همّ المتطوعين في قسمي الحملة ومن انضم إليهم من المسيحيين الموتورين، وخاصة مرافقي قسم حملة صور، وهم من قرى عينبل ودبل وأقرط وقوزح ورميش، الإمعان في السلب والإثخان بمن يتفق مروره بطريق الحملة.

فكانت الحملة أداة للانتقام لا للتأديب، وإلا لكانت سلكت غير هذا الطريق.

وقد خربت حملة النبطية دار محمد بك التامر بمدفعيتها التي صوبت نيرانها عليه من مرتفع هضبة برج قلويه.

والتقت الحملتان في تبنين، ومنها مشتا متحدتين في أعمالهما، وأطلقت هذه الحملة أيدي مرافقيها من مسيحيي عينبل في قتل من يجدونه على الطريق من الشيعيين، وفي النهب. وكان من الفجائع أن أطلقوا النار على سبعة رجال مكارين. ولما اقتربت من بنت جبيل، ارتقت الحملة بعض مرتفعاتها، وسلطت عليها مدفعياتها، وكانت قد خلت من السكان، ولكنها ملأى بأمتعتهم وأثاثهم، وكل ما لم يستطيعوا له حملاً مما يملكون، وهذه القرية من أثرى البلاد العاملية وأغناها.

ومشى المتطوعون والموتورون من المسيحيين والجيش وراءهم تحت حماية المدفعية، ولما لم يجدوا في القرية نافخ نار، والبيوت متروكة بكل ما فيها، والحوانيت غاصة بما تحويه من البضائع، أعمل فيها مسيحيو تلك

الجهات ممن رافق الحملة ومن التحق بها عند وصولها أيدي النهب يحملون ما خف حملاً وغلا قيمة، وما بقي يضرمون فيه النار.

وهكذا أصبح هذا البلد العامر الذي تبلغ نفوس سكانه زهاء أربعة آلاف وخمسمائة نفس بين نارين: نار المدافع المصبوبة عليه ونار الناهبين، ولم يعفوا حتى عن المقدسات الإسلامية، فهدموا مسجد الحسينية، وأهانوا ما فيه من مصاحف وأجزاء القرآن، وبعض الكتب الدينية، ولم يغادروا هذا البلد إلا بعد أن تركوه خراباً يباباً، وكان ما أحرق من الدور وما دمر يبلغ زهاء ثلثيها، وما أصابه بعض الدمار الثلث الآخر، ويقدر ما خسره هذا البلد من أثاث ورياش ومؤن وبضائع وتدمير دور بمليون ليرة ذهباً.

تركت الحملة والملتحقون بها هذا البلد جذوة نار ينعق به بوم الخراب، ووزعت الفصائل على قرى مارون وصلحا ويارون وعيثرون وكونين وعيناثا الخالية من ساكنيها، ففعلت فيها ما فعلته في بنت جبيل، دع ما أتلف من زروعها، وما أصاب من لم يستطع من أهلها الفرار من قتل وتعذيب، فقد قُتلت امرأتان من قرية كونين لأنهما حاولتا حماية جريح لهما من الإجهاز عليه.

وهدمت فصيلة بعض البيوت في قرية برعشيت، وأتلفت ما صادفته فيه من أثاث ومؤن وغلال، وافتدت شقراء من إرهاق الفصيلة لها، بدفع غرامة خمسين ليرة عثمانية وبتسليمها ما وجد فيها من سلاح، وصادرت فرسين إحداهما للمرحوم العلامة السيد محمد محمود الأمين.

ولما ذهبت فصيلة عيثرون إلى قدس، تقدمها طليعة بعض الفرسان، فالتقت بعض رجال المقاومة وهم من فلول الثائرين الذين اصطدموا بحملة صور في وادي الحريق، ومن انضم إليهم من رجال أدهم خنجر وصادق حمزة، فكبدوها بعض الخسائر والقتلى، ولولا انضمام الفصائل الأخرى التي كانت موزعة في القرى القريبة إليها لأصيبت بأعظم الخسائر.

وتوحدت هذه الفصائل وذهبت إلى قرية ميس ولم تصنع بها شيئاً، ومنها اتجهت إلى هونين بعد أن انفصل عنها القسم الذي جاء عن طريق صور إلى صور، والقسم الذي جاء عن طريق النبطية بقي بقيادة الكولونيل في هونين، واستدعى إليه كامل بك من الطيبة وبعض وجوه صور والنبطية والخيام وصيدا.

أما حملة صور فكانت تمعن في ظلم القرى التي مرت بها، ويعمل متطوعوها ومرافقوها فيها أيدي السلب والقتل.

أجاب كامل بك دعوة الكولونيل وحضر إلى هونين ولكنه وقد أحس الشر وأوجس منه خيفة، أعمل الحيلة في الرجوع إلى الطيبة بعد أن دعاه إلى وليمة يولمها له. وأضمر الفرار وكان ذلك يوم السبت في ٢٨ أيار وعاد إلى الطيبة ولم يلبث فيها إلا أن هيأ أسباب فراره، واتخذ الليل جملاً، وذهب إلى الجاعونه ومنها إلى دمشق.

وفي صبيحة يوم الأحد في ٢٩ أيار سار (نياجر) بجيشه إلى الطيبة، وكان قد حضر إليها بعض من دعاه من وجهاء البلاد إليها. وقد ساءه فرار كامل بك، فطوّق داره بالجند.

وفي هذا اليوم جاء شاربنتيه الطيبة، ومن عزمه تدمير تلك الدار الفخمة. ولكن وساطة بعض المسيحيين في عدم إنفاذ هذه الخطة، وقاها شر الهدم. ولكن أيدي الناهبين تركتها خاوية خالية.

ومُثلت فصول من الإرهاق والاضطهاد في البقية الباقية في القرية ممن لم يتمكنوا من الفرار. ومن ذلك أن جندياً فرنسياً خاطب بلغته شخصاً وهو مُدبِر ولا يعلم بأنه المقصود بخطابه. فأطلق عليه النار، فتركه يتخبط بدمه.

وسطا الجيش على ماشية القرية، وانتشروا فيها المتطوعون قصد النهب.

وقد اجتمع «نياجر» بالذين لبوا دعوته التي أرسلها إليهم من هونين، فطلب منهم مطاليب تفوق الوسع والطاقة، فأعربوا له عن أنهم لا يمثلون الطائفة الشيعية، وأنه لا بد من عقد اجتماع يدعى إليه ممثلوها من الأعيان والعلماء والوجهاء، واتفقوا على أسماء الذين يجب أن يدعوا وعلى مكان الاجتماع وهو مدينة صيدا، وعلى زمانه وهو يوم السبت في الخامس من حزيران.

وكانت قد ذهبت فصيلة من هونين إلى قرية الخالصة، فهدمت دار كامل حسين اليوسف شيخ الحولة، وعثرت على ستة عشر صندوقاً من الذخائر والأسلحة فصادرتها.

وفي أول حزيران أحرقت دار السيد عبد الحسين شرف الدين بعد أن نهبت محتوياتها، وانتهبت مكتبته الحافلة بالكتب النادرة.

وقد بلغت مدة ذهاب الحملة وإيابها سبعة عشر يوماً كانت كلها سلاسل فجائع في البلاد. ذهبت في ١٨ أيار وعادت في ٣ حزيران.

عادت الحملة من البلاد، ولكن الثورة عادت سيرتها الأولى بل أشد. وما كان الأمير محمود الفاعور ليبيت على الغلب ولا مشايخ الحولة، فجمعوا جموعاً كثيفة من مختلف الطوائف، وخيموا في بعض أطراف مرجعيون، وهم عازمون على مهاجمة القرى المسيحية التي رافق بعض أهلها الفصائل التي هدمت دار الأمير محمود في الخصاص، وسلبت كل ما فيها من أثاث وغلات، وكذلك هدم الفصيلة التي توجهت من هونين لدار كامل حسين اليوسف وكاد رجال الثورة يسدون المنافذ على السّابلة، وتنقطع الصلة بين أجزاء البلاد واقتربت جماعة أدهم من النبطية.

وهكذا وقعت البلاد العاملية بين نارين: نار الثوار ونار السلطة. واضطرب فيها حبل الأمن أيما اضطراب.

اجتماع القنطش:

عقد الاجتماع الذي قرره (نياجر) بالاتفاق مع بعض وجهاء العامليين في الطيبة، لتقرير مطاليب السلطة منهم، يوم السبت في ٥ حزيران سنة ١٩٢٠م، الساعة الثالثة بعد الظهر في (قنطش) دار الأسقفية الكاثوليكية في صيدا.

وقد ترأس الاجتماع الكولونيل (نياجر)، فالقومندان (شاربنتيه)، فرشيد بك جنبلاط متصرف لواء صيدا، ففؤاد العازوري قائمقامها، وحضر الاجتماع من العامليين العلماء: الشيخ حسين مغنية والشيخ عبد الحسين صادق والسيد محمد إبراهيم والشيخ عبدالله الحر والشيخ منير عسيران والشيخ محمد أمين شمس الدين والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، ومن الأعيان: فضل بك الفضل ويوسف بك الزين ونجيب بك عسيران وراشد بك عسيران وزين العابدين عسيران وحسين بك الدرويش ونعمان بك المحمد، ومن الوجوه: محمد جابر والحاج إسماعيل الخليل والحاج عبدالله يحيى الخليل والحاج أحمد عرب وكثيرون غيرهم.

عُقد هذا الاجتماع، وقد حضره فريق من مسيحي صيدا ومرجعيون وصور، ولم يعقد للبحث في ما تفرضه السلطة أو فيما يُترك فيه المجال للمجتمعين في المناقشة، بل عُقد لإملاء ما تطلبه تلك السلطة، والتزامهم به، وتحقيقهم له.

وبعد أن قرعهم الكولونيل بما شاء له أدبه الفرنسي والعسكري بقارص القول، وبعد أن اتهم الطائفة الشيعية بأجمعها بالاشتراك في ما ارتكب من الجرائم في مسيحيي البلاد بإحدى الطرق الثلاث إما بالمباشرة، وإما بالدفع إلى ارتكابها، وإما بالرضى.

وكان قد أعد وثيقة قبل خطبته النارية، ولم ينته منها حتى خيّر

المجتمعين بين إحدى حالتين لا ثالث لهما، إما توقيعها وإما الإبتعاد حيث تنتظرهم الدارعة[1] في عرض البحر.

والمطاليب في وثيقته هي:

١ ـ جمع الأسلحة.

٢ ـ دفع دية قتلى المسيحيين.

٣ ـ إرجاع منهوبات المسيحيين.

٤ ـ التعهد بحفظ الأمن.

٥ ـ دفع مائة ألف ليرة عثمانية ذهبية غرامة توزَّع بمعرفة المجتمعين على عامة القرى العاملية.

٦ ـ دفع الحصة العشرية وبقايا الأموال الأميرية.

٧ ـ التعهد في حصاد مواسم مسيحيي عينبل ورميش وقوزح وغيرها.

٨ ـ التصديق على ما أصدرته السلطة العسكرية من أحكامها المختلفة، من إعدام وإبعاد ومصادرات على رؤساء الثوار، وبعض العلماء والزعماء والوجهاء.

وكان قد اجتمع قسم من المدعوين قبل ظهر ذلك اليوم، ولم توقع الوثيقة انتظاراً للمتخلفين الذين حضروا اجتماع ما بعد الظهر، ولم يحضره (نياجر) وإنما طلب إلى شاربنتيه ورشيد بك جنبلاط تقيدهما بمضمون الوثيقة، وإلزامهما المجتمعين بوجوب توقيعها.

وقد ذهبت كل مراجعة في سبيل تخفيف شيء من تلك المطاليب سدى، حتى حلّ الليل، فوُقّعت تحت صلصلة سيوف الشرطة والدرك، وأزيز الدارعة في عرض اليم.

---

(١) الدارعة: القوات المدرّعة المحمولة في البوارج العملاقة.

وتابع المجتمعون اجتماعاتهم، لتقرير توزيع الغرامة، وإنفاذ مضمون الوثيقة من الخامس من حزيران إلى الرابع عشر منه، حيث اقتضت حال انتشار رجال الثورة في جهات مرجعيون والشقيف ووادي الحجير، واضطراب حبل الأمن بعد رجوع الحملة، أن يُكلَّف (شاربنتيه) للذهاب إلى النبطية، ولملافاة أمر الثورة التي كادت تقترب منها، ولمفاوضة رؤساء الثوار بالكف عن الإخلال في أمن البلاد، كلاً من الشيخ حسين مغنية والشيخ عبد الحسين صادق والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر وفضل بك الفضل ويوسف بك الزين والحاج إسماعيل الخليل والسيد عبد الحسين محمود وخنجر عبدالله.

وأُعدت لهم السيارات بعد ظهر ذلك اليوم، فذهبوا إلى النبطية، وتُرك أمر البت في الوثيقة إلى اجتماع آخر.

وعند وصولهم إليها، سمعوا إطلاق النار من فصيلة فرنسية على جماعة أدهم التي كانت مرابطة في قلعة الشقيف، فتقرر أن يكتب إلى رؤساء الثوار إذ ذاك محمد بك التامر وأدهم الخنجر وصادق الحمزة المقيم في الحجير، بتوقيع كل من الشيخ حسين مغنية والشيخ عبد الحسين. ومحصل ما كتبوه لهم بذل النصيحة في ترك أعمالهم التي جرَّت على البلاد كل بلاء، وأنهم إذا داوموا العمل بخطتهم فإن الخراب مصيرها، وأنهم ساعون لدى الحكومة لاستصدار عفو عام عنهم. وفي اليوم الثاني، رجع الرسول بجواب عن أحد الكتب موقعاً بتوقيع صادق الحمزة وأخيه وحسين علي ندى ومحمد البعلبكي، وكان الجواب غير مرضٍ.

ولمّا عُرض على الليوتنان (توليبيه)، اقترح أن يذهب وفد من العلماء لمقابلة رؤساء الثوار، ولم يسعهم رد مقترحه، فذهب وفد على رأسه الشيخ حسين مغنية والشيخ عبد الحسين صادق، وخابر رؤساء الثورة بأن يقابلوهم في قرية الطيبة، ولكنهم لم يلبوا طلبهم ولم يجتمعوا بهم.

وكان في ليلة ١٤ حزيران سنة ١٩٢٠ م هجوم الثوار على الجديدة، وكان يقود الغوارنة عزوز المصطفى شيخ الدوارة، والشبعاويين محمد مرويد، وبعض عرب الفضل زعل السلوم.

وقد هاجموها من الجهة الشمالية، وكانت القوة العسكرية الفرنسية متحصنة في الجنوب منها، وأصبحت البلدة بين ناري الجند والثوار. فعظمت بذلك فجائعها، وهذه هي الخطة التي اعتمدتها السلطة في هذا البلد في نكباته المتعددة، حيث اتخذت منه قاعدة حربية، فجعلته طعمة للنار.

إن حملة الثوار في هذه المرة كانت قد أعدت للأخذ بثأر الأمير محمود، وكان من نتائجها سقوط كثير من القتلى من أهل الجديدة، وجرحى كثيرون، وحرق كثير من دورها.

وهكذا استمرت الحال في مرجعيون، وهي على هذا المنوال مهددة بمهاجمة الثوار وبنيران بنادقهم، وبقذائف رشاشات ومدافع السلطة العسكرية، وأعمال التنكيل مستمرة في بلاد بشارة، وفي بعض قرى مرجعيون المسلمة، ولم تكتف بإيصال الأذى إليها بهذا الطريق فحسب، بل ضمت إلى ذلك تشكيل عصابات مسيحية مسلحة تعضدها السلطة.

وانتشرت في السبل التي يطرقها الشيعيون، دع من كان يتجول منها في القرى المستضعفة، فيخيف آمنها، ويعمل فيها نهباً وقتلاً.

وكثرت فظائع هذه العصابات المسيحية، وزاد ويلها وشرها، بعد أن استطاعت السلطة العسكرية تفريق شمل العصابات غير المسيحية، فحلّت هذه محلها، ولم يكن من همها غير الانتقال بأفظع صورة. وطال أمرها، هذا ما وصلت إليه حال هذه البلاد من هذه الناحية ومن ناحية تنكيل السلطة بكل من تلصق به تهمة ما من التهم، ومن ناحية توزيع تلك الغرامة الهائلة، وطريق تحصيلها بما يزيد إضعافاً على الموزع منها، ومصاحبة ذوي الأطماع لجباتها.

وما نغالي إذا قلنا إن الغرامة قد فرضت مائة ألف ليرة ذهبية، ولكنها حُصّلت نصف مليون ليرة ذهبية، وإذا ضممنا إليها ما سُلب من البلاد عن طريق الحملة، وعن غير طريقها، وما خرب من البلاد، كان ما تكبدته من الخسائر في الأموال، ما لا يقل عن مليوني ليرة ذهبية.

فما بالك بقطر صغير تبلغ نفوسه ثمانين ألفاً، يناله من الخسائر في الأموال وما إليها مثل هذا المبلغ، وما عسى أن يكون موقفه الاقتصادي بعد هذه الضربة الفادحة؟؟؟....

لا جرم أن مصيره الذي بلغه اليوم، وما سيبلغه غداً، يفصح عن موقفه تمام الإفصاح.

لم يكن سقوط الشام في ٢٤ تموز سنة ١٩٣٠ م إلا مفتاحاً جديداً لتضاعف إرهاق البلاد، وامتداد الأيدي إليها بالإساءات، وما كان ليشفي ضغن الساخطين عليها كل ما أصابها من التنكيل، وتلف الأنفس، حتى أن (نياجر) نفسه صارح من قابله من العامليين ومنهم الشيخ أحمد رضا، أنه أسرف في تأديب العامليين في حملته، وأنه مع هذا الإسراف لم يرض خصومهم الذين لا يعرفون للتوسط معنى.

وعمرت سوق الانتقام من العامليين، وسُدت في وجوههم منافذ الرحمة، وفقدوا الرحيم. وضربت السلطات دون الإصاخة[1] إلى شكاواهم بالأسداد، وأصبحوا لقمة سائغة للأكل، وتفنن خصومهم بإقامة الدعاوى على كل من تصور لهم شهوات التنكيل النيل منه، حتى كادت البلاد تشفي على الخراب.

وكثر الفارون منها إلى غيرها، طلباً للسلامة، وهرباً من الاستخفاف. وقام من الوطنيين من ينفذ الخطط في الأهلين.

---

(١) أصاخ السمع: أصغى واستمع.

وكان سقوط الشام من أعظم الوسائل لاشتداد البلاء عليهم، فكم من دم طَلّ[1] بدون حق، بل بمحض الافتراء، وكم من مال استُصفي[2]، وأملاك صودرت، وأثاث ورياش وأمتعة انتهبت، وحيوانات سلبت. ومن حرة اغتصُبت.

وهكذا شاء القدر أن يشقى هذا القطر، فيسعد بشقائه فريق من خصومه الذين رأوه تحت متناول أيديهم، وقد عجزوا وعجزت السلطات نفسها عن تمثيل[3] شيء من تلك المآسي في البلاد التي كاد يكون الثائرون منها أس كل ما نزل من البلاء في القرى المسيحبة التي زعموا الإيثار لها:

وجرم جرّه سفهاء قوم فحل بغير جاريه العذاب

ومن العجيب أن القصاص لم ينل في عامة البلاد تقريباً غير الأبرياء، ومن لم يكن لهم في تلك الثورات خل أو خمر، ولكن هكذا شاءت الأهواء والسياسة العسكرية.

ظلت البلاد تكابد مآسي العصابات المسيحية التي شكلها (شاربنتيه) وفؤاد العازوري ونور رزق الله من هنا وهناك. وترك لها المجال الواسع في تمثيل فظائعها مدة سنتين ونيف، والسلطات تتصامم عن سماع كل شكاية، والأهلون عزل عن كل سلاح، وقد أخلت منه البلاد، حتى كانت السلطات تتخذ الأسلحة قاعدة للاقتصاص والغرامات المالية، إلى أن أدى الحال أن كانوا يبتاعون ما يفرض منه عليهم من بعض القرى المسيحية المملوءة منه.

وما تنفست البلاد الصعداء إلا بعد استبدال الجنرال (ويغان) بالجنرال

---

(١) طلّ: سفك.

(٢) أُستصفي: صودر.

(٣) تمثيل بمعنى تصحيح؛ يقال تماثل إلى الشفاء، أي تعافى.

(غورو) الذي مثلت تلك الفصول على عهده ولا غرو فإن من يخطب في القرن العشرين غير متحرج ولا متأثم يوم إعلان لبنان الكبير وقبله، بأنه في تغلُّبه على سورية قد نفذ خطة الحروب الصليبية، لا تستكبر منه تلك الخطة التي نفذها في تدمير جبل عامل.

أصاخ هذا الجنرال[1] سمعه إلى شكايات العامليين، وقابل وفد العلماء عام ١٩٢٣م بكل دعة، ووعده بتحقيق مطالب العامليين، وهم وإن نالوا بعض الحقوق، إلا أنه ما زال منظوراً إليهم نظرة لا تتفق مع الأوضاع الطائفية، التي ساسوا فيها إدارة لبنان الكبير وقد ألحقوهم به بغير اختيارهم، مع أنهم في العدد النسبي يعتبرون الطائفة الثالثة، ولكنهم في نصيبهم من مغانم الحكومة دون نصيب الأقليات، وإن كان حظهم من المغارم إن لم يكن في الدرجة الأولى ففي الدرجة الثانية.

هذه وجيزة من حوادث هذه البلاد في مدى تسع سنين، ولا يتسع المجال لسرد كل ما عانته بالتفصيل، فنقتصر على ما أخرجنا بعضه من مفكرات تلك الأيام السود.

(كان تحريرها في سنة ١٩٣٢م).

---

(١) أي الجنرال «ويغان».

فهرست العلماء

فيما يلي لائحة من أصحاب السماحة والفضيلة العلماء الأجلّة الواردة أسماءهم في الكتاب مدرجة حسب التسلسل الأبجدي ولسماحتهم تعاريف مفصلة في المعاجم المخصصة لذلك وهم:

١ ـ الشيخ أحمد رضا.

٢ ـ الشيخ أحمد مروة.

٣ ـ الشيخ أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان.

٤ ـ الشيخ أحمد عباس.

٥ ـ الشيخ جواد سبيتي.

٦ ـ العلامة السيد حسن آل ابراهيم.

٧ ـ السيد حسن يوسف مكي.

٨ ـ الشيخ حسين مغنية.

٩ ـ الشيخ سليمان ظاهر (المؤلف).

١٠ ـ المقدس السيد عبد الحسين شرف الدين.

١١ ـ السيد عبد الحسين محمود.

١٢ ـ السيد عبد الحسين صادق.

١٣ ـ الشيخ عبدالله الحر.

١٤ ـ الشيخ كامل حسين اليوسف.

١٥ ـ السيد محمد آل ابراهيم.

١٦ ـ السيد محمد أمين شمس الدين.

١٧ ـ الشيخ السيد محمد نور الدين الموسوي.

١٨ ـ الشيخ منير عسيران.

١٩ ـ الشيخ موسى شرارة.

فهرست ثوار جبل عامل

«نتيجة المظالم التي تعرض لها جبل عامل منذ العهد التركي وحتى قدوم (الإنتداب) الفرنسي، وما جرّه ذلك من ويلات ومآسي على الشعب المستضعفين هذا الجيل، فقد نهض بعض الفوارس الذين لا ينامون على ضيم، وثاروا على الظلم، وواجهوا المستعمر، ولا يخفى انه كان لعلماء جبل عامل، وخاصة المقدس السيد عبد الحسين شرف الدين(قدس)، كما كان لرجالات الأمة الأحرار مثل المجاهد سلطان باشا الأطرش، دوراً في نفح الروح العربية الثورية، التي لم تستقر حتى حصول الإستقلال. وهي باقية إن شاء الله حتى تحرير كامل المقدسات في فلسطين الحبيبة».

من أسماء الثوار الواردة في الكتاب:

١ أدهم خنجر.
٢ ـ حسين علي ندا.
٣ ـ صادق حمزة.
٤ ـ عزوز المصطفى قائد الغوارنة.
٥ ـ زعل السلوم قائد عرب الفضل.
٦ ـ محمد مرويد قائد الشبعاويين.
٧ ـ محمد البعلبكي.
٨ ـ محمود الأحمد بزة.
٩ ـ محمود العكاوي.
١٠ ـ محمود المحمصاني.
١١ ـ محمد المحمصاني.
١٢ ـ نسيب شهاب.

فهرست الأعيان والوجوه

فيما يلي بعض الأعيان والوجوه الذين وردت أسماءهم في الكتاب، مدرجة حسب التسلسل الأبجدي.

١ ـ الحاج أحمد أبو عرب.

٢ ـ الحاج اسماعيل الخليل.

٣ ـ الطبيب أسعد رحال.

٤ ـ أحمد منيمنة.

٥ ـ أمين الريحاني (فيلسوف الفريكة اللبناني).

٦ ـ حسين بك درويش.

٧ ـ حسين الدادا.

٨ ـ حسين اليوسف (شيخ مشايخ عرب الحولة).

٩ ـ الحاج حسين الزين.

١٠ ـ خليل ابراهيم (شيخ قرية دردغية).

١١ ـ داود الداد.

١٢ ـ راشد بك عسيران.

١٣ ـ رشيد بك جنبلاط.

١٤ ـ زين العابدين عسيران.

١٥ ـ عبد الكريم الخليل (رئيس المنتدى العربي).

١٦ ـ عبد المنعم عاصي.

١٧ ـ عبدالله يحيى الخليل.

١٨ ـ فضل بك الفشل.

١٩ ـ كامل بك الأسعد (زعيم الطيبة).

٢٠ ـ كامل حسين يوسف (زعيم الحولة).

٢١ ـ الأديب محمد جابر.

٢٢ ـ محمود الفاعور (أمير عرب الفشل).

٢٣ ـ الحاج محمد حسن عبد الله.

٢٤ ـ محمود بك الفضل.

٢٥ ـ نعمان بك المجد.

٢٦ ـ نواف الشعلان.

٢٧ ـ يوسف بك الزين.

فهرست شخصيات رسمية
فرنسية وعربية وتركية

١ ـ اسماعيل كمال بك (زعيم الألبان).

٢ ـ أبي بكر حازم بك (والي بيروت).

٣ ـ أدهم بك (والي بيروت).

٤ ـ الشيخ أسعد الشقيري (مساعد جمال باشا).

٥ ـ بهاء الدين بك.

٦ ـ جمال باشا السفاح.

٧ ـ الشريف حسين بن علي (ملك الحجاز، وقائد الثورة العربية).

٨ ـ رضا بك الصلح.

٩ ـ رياض بك الصلح.

١٠ ـ ريكورا، (قائد زقة المتطوعين اللبنانيين الشمالية).

١١ ـ سعيد باشا سليمان.

١٢ ـ شكيب ارسلان.

١٣ ـ شفيق بك المؤيد.

١٤ ـ طلعة الكردي، (كومندان جندرمة صيدا).

١٥ ـ عبد الغني العريسي.

١٦ ـ عادل بك (مأمور ليمان صيدا).

١٧ ـ عبد الرحمن بك اليوسف.

١٨ ـ الجنرال غورو (الحاكم العسكري الفرنسي).

١٩ ـ الملك غازي بن فيصل.

٢٠ ـ الملك فيصل بن الحسين (ملك الشام ثم العرراق).

٢١ ـ القومندان شاربينيه (حاكم صيدا العسكري).

٢٢ ـ الوزير كامل باشا.

٢٣ ـ لطفي فكري.

٢٤ ـ الليوتنان تولييه.

٢٥ ـ محمد سعيد بك حمادة، (كبير الحماديين).

٢٦ ـ نياجر (الكولونيل الفرنسي الذي كان على رأس الحملة التأديبية الفرنسية بعد واقعة عين ابل.

فهرس